أنيس منصور

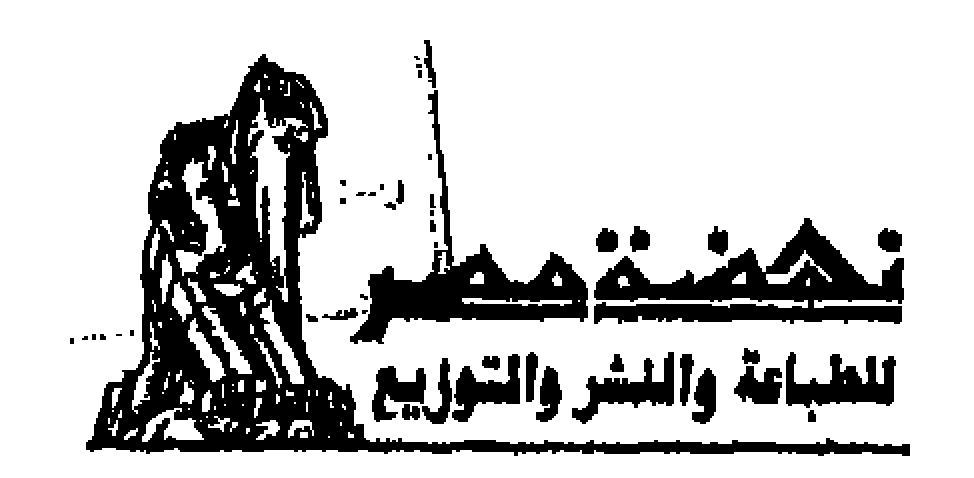
اقرأ أي شيء

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

أنيس منصور



مقالات



عنوان الكتاب: اقرأ أى شىء
اسم المؤلف: أنيس منصور
تاريخ النشر: يناير ١٩٩٧

رقم الإيداع: ١٣٩٨١ /١٩٩٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N 977 - 14 - 0539 -X
تصميم الغلاف: م. محمد العتر
الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢
فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢
ص.ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢
فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢
ص.ب: ٢٠ امبابة

كلمة أولــى ..

رأيى الخــاص : أن أى شىء . أو ورق يقع فى يدك يجب أن تقرأه المهم أن تكون القراءة عادة . وأن تصاحبها لذة المعرفة . ولا خـوف على هذا القـارئ الذى يبـحث عن الكلام اللذيذ . عن الموضوعات الممتعة . لأن هدف القراءة هو أن تتحقق المتعة والبهجة لديك . وهذه المتعة هى التى تجعلك لاتتوقف عن القراءة . ولذلك فالآباء يجب ألا يخافوا من أى شىء يقرؤه الابن صغيرا كان أو كبيرا . المهم أن يكون هناك كتاب . وأن يكون هناك حرص على شرائه والاحتفاظ به بعد ذلك نواة لمكتبة خاصة .

حتى لو قرأ قصصاً بوليسية أو حكايات غرامية أو رحلات علمية أو رحلات تاريخية أو فلكية ؟ نعم المهم أن يشغله الكتاب وأن يشعل النار فى خياله ويجدد أحلامه ويفتح شهيته على دنيا جديدة فى أى اتجاه أدبى أو علمى أو جغرافى أو فلكى . لقد كان العالم الفيزيائى الكبير أينشتين يحب قراءة القصص البوليسية . وله رأى مشهور وهو : أننى أحسد كل مؤلفى القصص البوليسية . لأنهم يعرفون الحل ولكنهم يخفونه عن القارئ ويدوخونه وينشفون دمه . . ثم يتقدمون بالحل فى النهاية . أما أنا فدائخ وريقى ودمى نشف ولكن لا أعرف حلا لكل هذه المشاكل بين السماء والأرض!

وكان الفيلسوف الألمانى العظيم «كانت» يقول أنه عندما يكتب فإنه ينظر إلى الآثار التاريخية القديمة التى أكلها الزمان والمكان :

لماذا ؟ لأنه يريد أن يعيد بناء القديم . . وأن يبنى صروحا عقلية جديدة !

وكذلك كان الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل يقول : عندما اشرع فى الكتابة فأننى أعود إلى الكتب القديمة والأساطير القديمة . . وأجد متعة فى ذلك . فمن آمالى ألا أكتب مثلها . وألا اكون غامضا مثلها . . وإنما أن أشيع النور والمنطق فى كل سطر أكتبه . .

المهم أن يجد الإنسان الجو المناسب . هذا الجو يجىء من الكتاب ومن المؤلف ومن الموضوع ومن الاستعداد الذى لايشبع لاستيعاب كل ما تقع عليه العين . وأن يكون القارئ صابرا . . بل يجب ألا ينفد صبره .

فإذا احس أنه قد شعر بشىء من الملل . فمعنى ذلك أنه قد تعب . وأن كل حيل المؤلف لم تعد قادرة على فتح عينيه وشهيته . فليقفل الكتاب فورا . ولينظر إلى شىء آخر . . أو يقلب فى كتاب آخر !

وإذا سافرت فأنت تقرأ الدنيا كلها بقدميك وعينيك . . افتح عينك وأذنك . . وأنت سوف تجد العجب . . وهذه هى السعادة! .

أنيس منصور

اقرأ أى شىء !

(١)

وعندى اقتراح ببعض الكتب التى أراها ضرورية وأفضل أن تكون باللغة العربية .

وأول هذه الكتب ما جاء عن تاريخ مصر الحديثة فأسهل لك أن تقرأ عن مصر منذ الحملة الفرنسية حتى اليوم ، وبعد ذلك إن اتسع وقتك أن تقرأ بسرعة تاريخ مصر من بداية التاريخ .

ومن المؤكد أنك لن تستوعب كل ذلك ولكن عندك (رؤية عصفور) أى ما يراه العصفور وهو طائر بسرعة أى بعض المعلومات عن بعض القضايا لا كل المعلومات عن كل القضايا وإذا وجدت بعض الحكايات لها مغزى حديث ضع علامة فى هامش الكتاب ، أنا ضد ذلك تماما ولكن أكثر الناس يفعلون ذلك ، أقل الناس يمسكون قلما وورقة وينقلون هذه الأحداث أو هذه الحكايات وهى حيلة يلجأ إليها القارئ لكى يثبتها فى ذاكرته بالصورة والكتابة لا بأس .

وأسهل هذه الكتب ـ وليس أحسنها ما كتبه عميد المؤرخين المصريين عبد الرحمن الرافعى ، وكتبه سهلة وهو رجل طيب الخلق معتدل ، وهو لايتعمق كثيرا فى سرد تاريخ مصر فلا يغرقك فى

تنظيرات فلسفية صعبة وإنما هو يحدثك كأنك ابنه أو تلميذه الصغير فهو يترفق بك ولايتعالى عليك ، وهى من أهم صفات العلماء .

أما كتب مصر الفرعونية فكثيرة جدا ولن أختار لك واحدا منها فهى مكتوبة احسن وأمتع والمترجم فيها بديع أيضا وسوف تجد منها فى المكتبات أعدادا كبيرة .

نفرض أنه خطر على بالك أن تعرف : من هى جميلات مصر فى كل العصور ؟ ممكن ، والجواب : أنهن حتشبسوت وتييى ونفرتيتى ونفرتارى وكليوباترا (لم تكن جميلة أبدا) وشجرة الدر والإمبراطورة فوزية والأميرة هانزاده ـ أقول مثلا . . فلا تتردد فى أن تحقق لنفسك هذه الرغبة وابحث فى هذه الكتب واكتب وقارن ولاتتوقف عن رواية ذلك لأصدقائك ، هنا فقط تكون قد حققت كل أهداف القراءة : المتعة والبحث والكتابة ثم متعة أخرى فى أن تحكى ذلك لمن تشاء !

(٢)

نحن فى عصر التليفزيون ذلك الساحر الملون الذى يدخل بيتك ليلا ونهارا بلغات مختلفة . . ومن أطباق أحجام وأشكال . فالدنيا كلها قد انفتحت علينا . ويجب أن ننفتح وأن ننفتح أيضا . فماذا نعمل ؟

لاشك أنها متعة كبرى أن ترى الدنيا كلها عند أصابعك . . وأول شىء تراه هو هذه الذرات البيضاء التى تتحرك بسرعة هائلة على الشاشة . . فهذه الذرات هى التى جاء منها الإنسان . إنها تراب الكون . وهذه الذرات تتحرك بهذه الصورة وبهذه السرعة من ١٢ الف مليون سنة . . أى منذ بدء الكون . فالله قد خلق الكون من تراب ، هذه حقيقة علمية مؤكدة . والانسان والحيوان والنبات كلها خلقها الله من تراب . فنحن كنا هناك . . هناك بعيدا عن هذه الكرة الأرضية بالوف ملايين ملايين ملايين ملايين الكيلو مترات . فالإنسان ليس إلا ذرة تراب فى مئات الملايين من السنين!

وبعد ذلك تجىء الصور والحكايات الملونة . .

ولا شىء يدهشك قدر رحلات الإنسان فى الفضاء . . كيف ينطلق من الأرض إلى كواكب أخرى بحثا عن نقط يقفز منها إلى أماكن أخرى لعله أن يجد فيها حياة . . أو انتقالا لحياتنا هذه من الأرض . . تماما كما هاجرنا بين القارات .

من أفريقيا إلى آسيا ومن أوروبا إلى أمريكا . . وكذلك من

كوكب الأرض إلى كواكب أخرى . . أو أقمار تدور حول هذه الكواكب (فى المجموعة الشمسية التى تضم تسعة كواكب يوجد ٥١ قمرا) .

هذه الرحلات هى أكبر دليل على طموح الإنسان وخياله وقدرته على اختراق المجهول من أجل معلوم جديد . . ثم تجاوز المعلوم إلى مجهول جديد . .

وهكذا . والفرجة هى المتعة . ولكن هناك رحلات أخرى بين القارات . تفرج . واحلم . وسوف يكون لك ذلك . . فكل الذين سافروا لم يكونوا يحلمون بما هو أبعد من القاهرة أنا مثلا ـ رأيت مدينة الإسكندرية لأول مرة من الطائرة وأنا فى طريقى إلى استكهولم والآن عندى ٣٥ جواز سفر قد امتلأت كلها . فكم عدد المرات التى سافرتها ؟ لا أعرف فاقرأ عن رحلات القدامى . والرحلات التى قام بها المعاصرون متع نفسك . واحلم وتخيل . وسوف يكون لك كل ما تريد بعد ذلك . فكل الذين داروا حول الأرض داروا حول أنفسهم وهم يقرءون أدب الرحلات !

(٣)

أقول لك تجربة صغيرة . وإن كان معناها ليس كذلك . وإنما هى بداية ومحاولة ومغامرة . تمنيتها لنفسى . ولكن مع الأسف شغلتنى الدنيا فلم أستطع إكمالها . ولكنى أنصحك أن تحقق ما عجزت أنا عن تحقيقه ولن تندم على ذلك .

اعرف بلادك . ابدأ بالمحافظة التى أنت فيها . هات خريطة واختر لنفسك وأصدقائك بعض المدن . اذهب وتفرج واسأل . فكل الذى تراه وتسمعه جزء من مصر . بل هى مصر . فلا خلاف بيننا فى مشاكلنا وهمومنا وأملنا فيك وفى جيلك عظيم . .

وانتقل من هذه المحافظة إلى واحدةأخرى . وليكن لك أصدقاء ، فى كل محافظة اجلس اسأل . قل واسمع . إنها مصر اليوم التى سوف تكون مصر الغد . وإذا لم تستطع أن تفعل ذلك فى بعض إجازتك السنوية فالباقى فى إجازة قادمة . ولكن تفرج واكتب واسأل واستمع . واكتب .

فهذا هو الذى تقدر عليه مادمت طالبا . فإذا ذهبت إلى الشاطئ . فهناك تلتقى المتعة والمغامرة والمعرفة . فالهواء والماء والصحة هى المكافأة المناسبة التى تتلقاها بسخاء . لاتقف . لاتسكت . اتفرج . اسأل . اعرف . اكتب . انقل ما رأيت لمن حولك . وتأمل ما يقولون . لاتنس أن الذى تقوم به هول لعب وجد وحب . وكلها بداية وقمة الأداء فى المعرفة والسياحة والمشاركة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسة لبلدك . .

والخطوة التالية وبعد هذه التجربة المحترمة ، سوف تتجه إلى بلاد أخرى . . في الشرق أو في الغرب . .

ولكن هذه الرحلات في داخل مصر يجب أن ترعاها الدولة . . أو المؤسسات التعليمية والثقافية والسياحية أو الشركات المصرية الكبرى . ومن الممكن أن نعطى الطلبة مكافأة على ذلك . ومن الممكن أن تضاعف هذه المكافأة إذا طلبنا إليهم بحثا في موضوع معين . أو استفتاء عن سلعة من السلع .

فكل الدول الأوروبية تفعل ذلك مع الطلبة في الصيف والشتاء . وفي «بيوت الشباب» نجد الكثيرين قد جاءوا إلى بلادنا في مهام طبية أو صناعية . فهم عيون وعقول هذه الشركات جاءوا يسألون ويجربون ويكتبون ثم يلقون مكافأة على ذلك في النهاية !

(٤)

خطر لى أن أتحرك بين المحافظات المصرية . وأن أكتب عن بلادى وأبناء بلدى وعن مشاكلنا . وكيف الحل ؟ ثم عدلت عن الفكرة إلى الكتابة عن بلدنا : الدقهلية أو عن المنصورة فقط لا بأس ولا مانع . وذهبت إلى مدينة المنصورة ، ورحت أبحث عن بيتنا القديم . وعن شارعنا . أما الشارع فقد تغير اسمه . أما البيت فلم يعد له وجود . . ولا البيوت المجاورة . كلها تهدمت . وظهرت بيوت أحسن منها . أما الشارع الذى كنت أراه واسعا جدا ، فصار ضيقا جدا . وأما الميدان الذى كنت أتطلع إليه ، فقد وجدته ضيقاً . إذن الدنيا تغيرت فى عينى ، وفى الواقع أيضا . . .

وأما الطريق إلى مدرسة المنصورة الثانوية ، فقد تغير أيضا . . لم يعد مستقيما أو ملتويا أو كان مستقيما فالتوى ، لا أعرف بوضوح . ولكن ما المعنى ؟ ما الذى أريده من ذلك ؟

إن المطلوب هو وصف المدينة ، فتغيرت . أما الناس فلم أعد أعرف منهم إلا القليل . وهم مصريون يشربون نفس الماء والهواء الأكثر تلوثا وهم خليط من المماليك والفرنسيين وجاليات أوروبية أخرى . والعيون خضراء وزرقاء والشعور ذهبية . . وفى الدقهلية قرى كأنها فى السويد والنرويج . ومن هذه البلاد نابهون كثيرون فى الفن والأدب والعلم والصناعة ، ثم ماذا ؟

كيف أكتب أو أصف كل المشاكل التى أعرفها . . كيف أتظاهر بأننى لا أعرفها ثم اكتشف مع القارئ وجودها . . مع اننى والقارئ

نعـرف كل ذلـك . . كـيفـ أقـوم بدور السـائح الأجنبى أو المؤلف الغريب ، مع أننى لا سـائح ولا أجنبى ولا غـريب . . كـيف اقسـو على الناس وأنا أعرف كل الأسباب وأجد لهم كل الأعذار . .

كيف أبعد عنها لكى أراها أوضح . . فأنت حين تلصق عينيك للوحة كبيرة فأنت لاتراها . وإنما تبتعد عنها لتراها فى شمولها . كيف أبعد وأنا غارق فيها . . مربوط مرتبط بها . . كيف أقول أن الشوارع لها كذا والوجوه بها كذا وأنا أعرف الأسباب . ثم كيف أكون ممتعا لقارئ مصرى حين أضع على أكتافه عبئا ثقيلا . . وهو يريد أن يقضى وقتا ممتعا ـ مهما كان الكاتب موهوبا فإنه لايستطيع أن يجعلك تقضى وقتا وهو يتنقل بين عنابر الموتى وغرف التشريح؟!

ولذلك عدلت عن هذه التجربة المفتعلة .

وفى استطاعتك أن تكون ودودا رحيما صديقا وتتفرج على أهلك وأنت تفكر لهم ومعهم !

(٥)

ولو كنت من رجال الأعمال الكبار محمد فريد خميس ومحمد جنيدى وأحمد بهجت لتقدمت كل سنة إلى الطلبة فى جامعات مصر واخترت منهم أحسنهم .

وجعلت لهم مكافأة أن يزوروا بعض محافظات مصر . . بعد زيارتهم للمدن الصناعية الكبرى .

وطلبت إليهم أن يتفرجوا .

وأن يناقشوا وأن يحللوا مشاكل المحافظات .

وأحسن طريق لعلاج متاعبها الصناعية والزراعية ، وبعد ذلك يجيئون إلى القاهرة أو إلى الاسكندرية أو المنصورة يحدثون الناس عن الذى رأوا والذى أحبوا والذى كرهوا . .

ولو كنت من وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى ووزير السياحة ممدوح البلتاجى لاخترت عددا من الشبان .

وطلبت إليهم أن يذهبوا إلى معالم مصر الحضارية القديمة والحديثة .

ويتفرجوا ويكتبوا ويصوروا أو يرسموا . . وأن يجمعوا هذه المشاهدات أو الصور أو اللوحات أو المقالات أو القصص أو القصائد . . وينشروها بعد ذلك .

فنحن فى مصر نرى العجب فى الشباب الأوروبى الذى يجىء إلينا .

لا أنسى واحداً بعثت به إحدى شركات الأدوية الألمانية لقد كان عبارة عن صيدلية متحركة .

فقد وضع الكثير من المراهم الجلدية فى جيوب الجاكتة والبنطلون وهو يجرب كل ذلك تحت أشعة الشمس المحرقة وفى المياه المالحة .

يجرب ويكتب عن أثرها ومفعولها . . لقد حكى لى أحد الشبان الألمان كيف أنه جاء يجرب عددا من الأصباغ وأثرها على الملابس البيضاء والملونة إذا غسلت فى الماء المالح . . ثم أثر الشمس بعد ذلك .

طبعا كان يعمل لحساب إحدى شركات الأدوية مقابل مكافأة مالية . . فهو إذن قد تفسح واستمتع وكان نافعا بعد ذلك !

وعندما طلب منى الرئيس السادات أن أتفرج على قرية (حماية البيئة) الإسرائيلية فى جنوب سيناء اندهشت جداً .

واندهش السادات أكثر . فلم تكن هناك لا مدرسة ولا أكاديمية . . وإنما غرف مصنوعة من الطين يجلس فيها شبان جاءوا من السويد والدانمرك والمانيا يبحثون ظروف البيئة المصرية :

الرمل والظلط النبات والحشرات والرطوبة لحساب إحدى الكليات الإسرائيلية .

فالشباب هم الأهم وأبحاثهم هى الهدف ، وتشغيل الطلبة عقليا وعلميا هو الأمل !

(٦)

لا مانع من أن أكرر حلما قديما لم يتحقق حتى الآن . ولابد من حل نهائى . وحتى الآن لم نجد حلا . . وإنما حلول أو ما يشبه الحلول . وعيبها ، هو عيب كل المشروعات المصرية الرسمية : البداية الساخنة والفتور بعد ذلك . أو بعبارة أديبنا الكبير وبلدياتى أحمد حسن الزيات : كل شىء فرقعة ولألأة ، ثم سقوط وفناء . .

هذا الذى أحلم به هو : محو الأمية !

والدول لها تجارب مختلفة . وقد نجحت بدرجات متفاوتة . ولايزال الطريق مفتوحا والأمل معلقا علينا حكومة وشعبا وشركات فماذا نفعل ؟

بعض الدول قررت أن يقوم التلاميذ والطلبة فى أجازاتهم بتعليم الأميين فى بلادهم . . سنة بعد سنة . ولهم جميعا مكافأة مالية ، أو مكافأة بالدرجات لأن محو الأمية مثل أعمال السنة !

بعض الدول كانت حاسمة قاطعة . فقد قررت إغلاق المدارس والكليات عاما كاملا ، وكلفت الطلبة والمدرسين والمواطنين بمحو أمية الشعب كله فى سنة واحدة . فكان لها ذلك !

بعض الدول جعلت فى كل المؤسسات والهيئات والملاعب والمصانع مدارس لمحو الأمية تنفق عليها الدولة . وجعلت ذلك إجباريا سنة بعد سنة . .

وعلى أيام الإمبراطورية الايرانية كانت الحكومة قد قررت ألا

يدخل الجامعة طالب إلا إذا كان قد محا أمية عشرة أو عشرين . وألا يرتقى أحد من درجة إلى درجة فى الحكومة إلا إذا كان قد محا أمية عشرة أو عشرين . .

وفى أوروبا فى أعقاب الحرب كانت بعض الدول الأوروبية تشترط لقبول الطلبة أن يكونوا قد عملوا عددا من الساعات فى بناء الكليات والمعامل . وكان الطلبة يعملون ساعات أكثر كثيرا من الساعات المطلوبة . . .

ونصف الذكور فى مصر أميون و٩٥٪ من الأناث أميات . ومجال العمل واسع وشاق وهام جدا لأى تطور فى الصناعة والزراعة والصحة . . ونحن لا نزال فى البداية . ولذلك يجب أن تكون البداية قوية جادة وعنيدة أيضا !

(٧)

فى استطاعة دور النشر الكبرى والمؤسسات الصحفية أن يكون لها دور فى تنشيط القراءة بأن ترصد جوائز سنوية للطلبة المتفوقين فى المحافظات أو فى الجامعات . وتكون الجائزة كتبا .

لماذا لايقوم اتحاد الناشرين بعمل جوائز سنوية للصغار والكبار . وتكون الجوائز للمؤلفين والرسامين وللطلبة المتفوقين . ولكن مع الأسف فإن اتحاد الناشرين المصريين غرقان فى الخناقات ولذلك فهو مشلول لا يستطيع أن يكون له مثل هذا الدور . وأنا انتهز هذه الفرصة وأدعو إلى انشاء اتحاد آخر للناشرين أو أكثر . وفى استطاعة أى كاتب أن يحصل على ترخيص بإنشاء دار للنشر فتكون هناك وجوه وأسماء وأحلام جديدة . تعمل على تنشيط القراءة ، وترويج البيع ، وترقية الطباعة ، واتساع النشر . ممكن . .

كما أنه ليس من الضرورى أن نعتمد دائما على وزارة الثقافة أو على الدولة ، وإنما وزارة الثقافة تحاول أن تملأ الفراغ الذى تركته دور النشر والمؤسسات الصحفية .

فليكن من العام القادم ، أن يلتفت المؤلفون إلى إقامة دور النشر ويمكن من العام القادم أن يلتقى كل الناشرين الجدد والقدامى للبحث فى كيفية ترغيب الشبان فى القراءة . ومكافأتهم على اجتهادهم كل سنة . وسوف تكون النتائج باهرة مثمرة للجميع !

اذكر من عشرين عاما كتبت مقالا فى إحدى الصحف الفرنسية بالقاهرة . وكان موضوع المقال كيف تأثرت بالثقافة

الألمانية . وكيف أن أكثر سنوات عمرى كانت فى دراسة الثقافة الألمانية فى الأدب والفلسفة وإننى أعرف أكثر الأدباء والشعراء والفلاسفة . . وأننى فتحت عينيى ولم أطبقهما بعد على كل جديد فى الفكر الألمانى . . وصحيح أمضيت سنوات من العذاب والمتعة فى الآداب الفرنسية والإنجليزية والإيطالية . . وكلها تنويعات لمصادر الفكر وموارد المتعة .

وبعد شهرين جاءتنى مجموعة كتب هدية من كبرى دور النشر فى ألمانيا ومعها خطاب يقول : بعد أن قرأنا مقالك اتفقنا على أن نشكرك وأن نبدى إعجابنا وامتناننا وأملنا فى أن يكون أمثالك بالألوف والملايين فى بلادك وفى العالم العربى . شكرا عميقا . أما الإمضاء فهو اتحاد الناشرين الألمان .

ولذلك يجب أن نتعاون كتابا وناشرين على أن نذهب إلى الشاب النابه وأن نفرش له الطريق بالكتب . هو كسبان والناشر ومصر أولا وأخيرا . . .

(٨)

الحرب شريعة الانسان ، والسلام شريعة الأنبياء . . فالحرب طريق إلى إلى الموت ، والسلام خطوات الحياة . وليست الحياة فقط ولكن الحياة السالمة المسالمة من أجل أن تمتد الإنسانية ، ويتصل الخير وتعلو كلمة الله . . ولم ينجح كثير من الأنبياء فى نشر السلام . بل أن نوحا - عليه السلام - قد دعا لله (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا) .

واستجاب الله . وغرقت الأرض ومن عليها إلا نوحا وأولاده وحيوانات من كل زوجين اثنين . . حتى ابن نوح قد غرق . ويستأهل ذلك !

فلن تنتهى الحرب . ولن تنتهى الكتب التى تدعونا إلى الدروس المستفادة - أى نستفيد من الحرب فنكون أفضل استعدادا لها واستعدادا ضدها .

وعندك الآن كتابان من ترجمة المشير عبد الحليم أبو غزالة . واحد عن سياسة الحرب والسلام والعرش . الذى سوف تجلس عليه أمريكا والدنيا كلها حولها وعند قدميها . . وهناك رأى خاص عن العالم العربى الإسلامى واعتراضات للمشير أبو غزالة عن سوء فهم الأمريكان للدور العربى والخطورة الإسلامية . هذا الكتاب من تأليف أحكم رؤساء أمريكا الرئيس نيكسون وعنوانه (ما بعد السلام) . ولم ينس الرئيس نيكسون أن مصر فعلت له ، ما لم تفعل لأى رئيس أجنبى . وهذا صحيح .

والكتاب الثانى واسمه (دروس الحرب الحديثة) من تأليف أنتونى كوردسمان وإبراهام واجنر - وهو عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وهو هدية للعسكريين الذين التفتوا طويلا يمينا ويسارا يتمنون دراسة جادة بالأرقام للحرب وأثرها فى الدول العربية ، ودور المخابرات والتكنولوجيا فى كل خطواتها . وهذا الكتاب سوف يفتح دماغك وعينيك على ما تحب وما لاتحب . وقد نبه المشير أبو غزالة إلى المطبات والشراك المنصوبة من أول الكتاب لآخره ووضع أصابعنا على كل ذلك .

والكتابان متعة عقلية من الوزن الثقيل . ويجب أن تقرأها جالسا لا نائما . وأن تمسك ورقة وقلما ، وتسجل ما يستحق المناقشة والموافقة والاعتراض . . فمثل هذه الكتب كما أنها دروس فى السلام والحرب ، هى أيضا فى التفكير والتاريخ . أرجوك أن تقرأ وتستفيد وشكرا للمشير أبو غزالة على هذه الوجبة الكاملة التى تنعش العقل وتنشط المعدة . والصحية أيضا !

(٩)

ولم نكن نعلم معنى هذه الأبيات التى وضعها أمين (المكتبة الفاروقية) فى برواز فوق رأسه . ولا كنا نعرف كيف نقرؤها . وكان يلفت نظرنا إليها ويبتسم . ولم نحاول أن نستوضح معنى الاشارة ولا معنى هذه الأبيات . . ولا حتى من هو هذا (المتنبى) الذى قال هذه الأبيات .

ولكن عرفنا بعد ذلك ومتأخرا جدا ، أن المقصود بهذه الأبيات هو الشاعر نفسه . وكان أمين المكتبة يرى أن القراء والباحثين والعلماء هم الذين يشعرون بهذه المعانى . ومعه حق . فليس أعظم من الكتاب ولا أروع من العلم ولا أمتع من القراءة . . ولا أكثر احتراما من شاب أمسك كتابا وانشغل به عن الدنيا . فالكتاب هو الدنيا . والعلم هو نعيم الدنيا ، وأمل الحياة ووسيلتها لأن تكون أفضل . . فلا تقدم إلا بالكتاب . . تقرؤه أو تؤلفه . .

أما الأبيات التى كانت فى برواز على رأس أمين (المكتبة الفاروقية) بالمنصورة فتقول ولم نفهم تعظيم وإجلال الشاعر لنفسه إلا أخيرا يقول المتنبى :

أى محل ارتقى

أي عظيم اتقى

وكل ما خلق الله

ومالم يخلق

محتقر فى همتى

كشعرة فى مفرقى !

يا ساتر . . إن المتنبى يقول إنه أعظم من أية مكانة ، ومن أى عظيم ، ومن خلق الله جميعا . . كل هذا لايساوى شيئا . فهو الذى يساوى كل شىء . .

وكان أمين المكتبة يؤكد لنا برفق وفى أدب ، أننا لسنا كذلك . . ولايمكن أن نكون كذلك إلا . . إلا إذا قرأنا لهذا الشاعر وغيره من العظماء ومن الأدباء والعلماء وكنا جادين صابرين . . وسوف نكون مثلهم وأفضل . . فإذا تحقق لنا شىء من ذلك فإن أى مكان نرتقيه سوف ننتقل منه إلى ما هو أعلى ، وأى عظيم نقرأ له أو عنه سوف نصبح نحن أعظم منه . .

وليس من الضرورى إذا ارتفعنا أن نحتقر الناس . فكلما قرأنا فسوف نبقى صغارا أمام الكثير والكبير جدا الذى لم نقرؤه بعد ، فالعلماء هم أكثر الناس تواضعا لإحساسهم الدائم بأن الذى يعرفونه قليل . . وأنهم دائما على شاطىء من محيط المجهول . .

ولكن الطريق إلى أعلى يبدأ من هنا . . فالمكتبات هى قواعد إطلاق الصواريخ إلى سماوات المعرفة التى لا نهاية لها . .

(١٠)

لن أنسى أول كتاب قرأته عن النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ليس كتاباً للعقاد ولا هيكل باشا ولا طه حسين ولا الحكيم . .

ويوم قرأت هذا الكتاب لم أكن أعرف أحدا من هؤلاء . . والذى لفت نظرى إلى هذا الكتاب الذى كان فى مساحة كف اليد هو كلمة (محمد) كانت على شكل بدر منير . . . .

فالغلاف لفت نظرى . شىء عجيب . كيف استطاع الرسام أن يجعل كلمة محمد تأخذ شكل البدر . لقد قال كل شىء فى هذا الشكل فهو بدر يضىء . . أضاء للبشرية نور الإسلام وعظمة الحكمة الإلهية . .

ومددت يدى وقرأت وقرأت . ووجدتنى أواصل القراءة فى طريقى إلى البيت واتجهت إلى غرفتى وجلست أقرأ وأقرأ . . شىء عجيب .

فلم أقرأ فى ذلك الوقت وأنا صغير أسلوبا بهذه السهولة . والذى أدهشتنى فى هذا الأسلوب أنه كلام عادى جدا . . ليست فيه كلمة واحدة صعبة . . ولا شىء يمنعك من أن تمضى حتى النهاية . . وبلغت النهاية فى يوم واحد . لاعود لقراءته فى اليوم التالى .

ولم يفسر لى أحد كيف يستطيع أى إنسان أن يقول ويكتب ما يقول . . ما اسم هذا الأسلوب ؟

لم أشغل نفسى باسم هذا الأسلوب . ولكن من المؤكد أنه سهل جدا بسيط جدا .

وأنه مختلف عن كل الذين أقرأ لهم . وإذا حاولت أن أجعل أسماء لأساليب الكتاب لقلت : إن أسلوب العقاد مثل واحد يمشى بخطوة منتظمة ويدق الأرض .

وأسلوب طه حسين مثل ماء ينساب هادئا ناعما . . وأسلوب هذا الكتاب مثل الهواء ينتشر لايوقفه أى شىء . . .

أما مؤلف هذا الكتاب فاسمه محمد صبيح . والذى رسم الغلاف هو الفنان عبد السلام الشريف . وتشاء المصادفة أن يكون الاثنان أول من صادفت فى بداية حياتى الصحفية . . فعندما عملت فى جريدة (الأساس) كان محمد صبيح نائب رئيس التحرير أو هو التحرير . . كما كان عبد السلام الشريف هو صاحب الإخراج الصحفى الجميل فى ذلك الوقت .

وقد تزاملنا وتصادقنا كل العمر . . .

(١١)

من ٣٥ عاما رأيت الناس فى جاكرتا عاصمة اندونيسيا يخلعون الأحذية عند باب السينما عندما تعرض فيلما اسلاميا مصريا . وكان الرقيب يحذف كل مشاهد القبلات والعناق فى هذه الأفلام حتى لا تصدم الشعور الدينى عند الناس . .

ولا أعرف الآن من هو ذلك المسئول السخيف الذى منعنا من خلع أحذيتنا عند مدخل «المكتبة الفاروقية» . فى المنصورة !

فقد كان ذلك شعورنا العام بأن المكتبة مكان عظيم الاحترام . أو أن الاحترام العظيم كله للكتب ولطالب العلم . فالعلم دين . والدين علم . ولم يكن أمين المكتبة الفاروقية فى حاجة إلى أن يشير بيده من بعيد بأن نسكت . لم يكن فى حاجة إلى ذلك . فقد كنا إذا أراد الواحد أن يأكل السندوتش بعد أن طالت ساعات القراءة أن يخرج ويقف على السلم أمام الباب . .

وعندما انتقلت إلى جامعة القاهرة كانت هناك أربع مكتبات فى وقت واحد مكتبة الجامعة ومكتبة الدراسات الشرقية وكان أمينها هو والد الفنانين محمود وعلى رضا وكان رجلا وقورا عاشقا للكتب وكنا عشاقا له . . وهناك تحفة تاريخية هى «دار الكتب» العتيقة العريقة . . ثم مكتبة «الدير الدومنيكى» فى شارع مصنع الطرابيش بالعباسية . حيث اساتذتنا الأجلاء من الرهبان : الأب جورج قنواتى والأب بولانجيه . . آه لو رأيت الأب قنواتى وهو يقدم لنا الكتب ويقبلها ويضعها فى مكانها . . كأنه جواهرجى يعرض

عليك مشغولات من الذهب المرصعة بالألماس واللؤلؤ . . فعيناه وأصابعه مضيئة والكتب أيضا !

وعندما نذهب إلى بيت الأستاذ العقاد كنا نتحايل حتى نرى مكتبته . وكنا نختلف هل بها مائة ألف كتاب أو خمسون الفا . ولما توفى العقاد لم يكن بها إلا الفان . . فقد باعها العقاد فى ظروف مادية صعبة !

ولكن كنا نراها ونراه أعظم ما فى هذه الدنيا . .

إن أطفال وشباب هذه الأيام أحسن حالا منا فعندهم «المكتبة الحديقة» فى كل عواصم المحافظات . . عندهم الكتب والجمال والهدوء وتشجيع الدولة . فلا عذر لاحد ألا يقرأ .

وسوف يذكر التاريخ للسيدة سوزان مبارك دورها الريادى فى إنشاء المكتبة الحديقة . . وتشجيع الطفل والشاب على القراءة . وبغير القراءة لاتقدم . ولا مستقبل عظيم لأى أحد ولاية دولة !

(١٢)

ليس السبب الوحيد فى لمعان الكثيرين من أبناء الدقهلية أنهم فقط خليط من أصول فرنسية تركية إيطالية يونانية ألمانية . . ولكن لأن هذه الجاليات لها حياة وأعياد غرسوها فى حياتنا فاستمعنا إلى الموسيقى الأوروبية والرقص والغناء .

ولأن هذه الجاليات لها جذور وفروع فى عائلاتنا فاعتدنا ونحن صغار على جرجس وكوهين ومخالى وأنطونيو وفريد ريش . .

ولا أعرف كيف تعلمنا لغات كثيرة ونحن لا نزال صغارا . ففى أبناء جيلى من يعرفون أربع لغات وخمس .

فالجاليات الكثيرة فى المنصورة كانت لها مدارس وفى المدارس مكتبات وكانوا يعلموننا ويدفعون لنا مكافأة من فلوس ومن كتب .

وأعرف عددا كبيرا من أبناء جيلى أكملوا تعليمهم فى أوروبا وأمريكا .

اذكراننى زرت أحد زملاء الدراسة . فوجدته وحده فى البيت . واندهشت .

فقال : لا تضحك . . ابنتى أم كلثوم تدرس فى أمريكا وابنتى فاتن تدرس فى ألمانيا وابنى مصطفى آخر العنقود يدرس فى سويسرا . . . . وزوجتى يا سيدى عند أمها فى فرنسا !

أما صديقى هذا فقد درس الطب فى بريطانيا . ويحمد الله أن ليس من أبنائه أحد يحب الطب . . فقد اختار كل واحد ما يعجبه من العلوم ومن الحياة .

وسوف يعودون جميعا إلى مصر . قد عادوا . . وهم أيضا نابهون . . .

وأذكر ونحن صغار كنا نردد نشيد (ألمانيا فوق الجميع فى العالم) وباللغة الألمانية قبل أن نعرف النشيد الوطنى المصرى . . وأول كتب مجلدة تجليدا أنيقا كانت الكتب الألمانية والإيطالية . أول مدرس يمر علينا فى البيوت يشرح لنا معانى الكلمات وأبيات الشعر كان الأب الألمانى فريدريش أولمان . ولم نكن نعرف ما هو الفرق بين القس والشيخ والحاخام . ولا ما هى الفوارق بين الإسلام والمسيحية واليهودية .

ولا أحد قال لنا ذلك . ولا أحد طلب منا أن نحترس من هؤلاء الذين يختلفون عنا فى الدين ؟!!

لابد أنها الكتب . . لابد أنها الحضارة . . لابد أنه التسامح . . لابد أنه الجو العام الذى يشيع النور فى كل مكان : حولنا وفى داخلنا وأمامنا لكى نتجه إليه دائماً .

حريق في الجليد ؟!

(١)

فى أوائل هذا القرن حدث حريق هائل فى الغابات الروسية . . وذاب الجليد وظلت سماء روسيا وأوروبا مضاءة شهورا ليلا ونهارا . ماذا حدث ؟ الواضح أنه حريق . ولكنه حريق واسع هائل كثيف الدخان باهر الضوء فى سيبريا والمناطق الجليدة . . ولكن شكل الحريق كان مثل انفجار ضوئى يعمى العيون . . هذا الضوء الصاعق حدث فى لحظة واحدة وظل مشتعلا فى الغابات والنباتات وقضى على الحيوانات والطيور . . .

وكان التفسير الذى يشغل خيال الناس هو أن إحدى سفن الفضاء الجبارة . . أو أحد الأطباق الطائرة قد دخل الغلاف الجوى للأرض واحترق . . أو ارتطم بالجيد . .

وجاء علماء روسيا يبحثون فى الغابات وتحت الأرض فوجدوا أنه لا أثر على الاطلاق لارتطام هذه السفينة بالأرض . . ولاتجويف فى الأرض . ولاتحولت الحجارة إلى مادة أخرى فالسفينة إذن قد احترقت عند دخولها الغلاف الجوى . . ولاحظ العلماء الروس أن الأرض فى سيبيريا إلى عمق ثلاثة أمتار لها نشاط إشعاعى . . إذن هذه السفينة الجبارة كانت فيها مواد مشعة . . أو كان بها

مـفـاعل نووى . . وأنهـا كـانت تنطلق بالـطاقـة النووية . . ولاحظ علماء آخرون أن الإشعاع كان ضعيفا وأن (الانفجار) قد وقع فى جو الأرض . وتجـددت نظرية أن (البـحـر الميت) نفسـه ليس إلا تجويفا لسفينة فضاء جبارة جاءت من المجرات البعيدة عنا عشرات ألوف السنين . . وأن الذى حدث فى مدينتى سودوم وعمورة كان انفـجـارا ذريا جـعل كل شىء يتـحـول إلى ملح ـ كـمـا جـاء فى التوراة . .

وأن مثل هذه الانفجارات الغريبة والعتيفة فى أماكن كثيرة من العالم القديم هى المسئولة عن تغيير أشكال وألوان الحيوان والإنسان والنبات كما ذكرتها الأساطير الاغريقية فى الإلياذة والأوديسة . . وكـمـا جـاء فى كـتـاب (ألف ليلة وليلة) وفى كـتـاب (مـروج الذهب) . . ففيها جميعا حيوانات قادرة على أن تتحول إلى بشر والعكس أيضا . أما السبب فهو أن الانفجارات النووية أحدثت ما تحدثه (الهندسة الوراثية) الآن من تغيير أشكال وأحجام الكائنات التى عاشت بعد الانفجار ـ وكلها اجتهادات علمية ، أما الحقيقة فنحن لم نعرفها بعد !

(٢)

أما هذا الحريق الذى أصاب روسيا وأحرق غاباتها وأذاب جليدها وأصاب بالأمراض المميتة حيواناتها ونباتاتها وكثيرا من البشر ، فقد وجد له علماء الفضاء والفلك والفيزياء الفلكية تفسيرا جديدا .

هم رفضوا أن تكون هناك أطباق طائرة أو سفينة فضاء . . أو انفجار نووى . . أى أن قنبلة سقطت من فوق !

فما الذى وجدوه أخيرا ؟

هناك فى الكون أشياء جبارة اسمها (الثقوب السوداء) . . أو البالوعة السوداء . . فما هى ؟ إنها مجموعة ألوف ملايين النجوم . . هذه النجوم لسبب لانعرفه تتقلص وتنكمش وتنكفئ على نفسها . . بسبب جاذبيتها الهائلة . . أى أنها تمتص بعضها البعض . . وتتحول إلى بالوعة طولها وعرضها ألوف ملايين الكيلو مترات وتبعد عنا مئات ألوف السنين الضوئية . . وهى تبتلع النجوم والمجرات والسحب الكونية . . وتنكمش وتزداد جاذبيتها لدرجة أنها تمتص الضوء الخارج منها . . أو الأشعة الصادرة عنها . ومادامت بلا أشعة تصل إلينا فهى مظلمة . . وتظل الثقوب السوداء تنكمش حتى تكون بعد ملايين السنين صغيرة الحجم . . ربما فى حجم الشمس ربما فى حجم الأرض . . ربما فى حجم القمر . .

والعلماء لايستبعدون أن يكون الكون كله قد كان فى حجم كرة

القدم أو البرتقالة أو الليمونة التى تزن ملايين ملايين ملايين الأطنان . .

ثم حدث الانفجار الكبير . . انفجرت هذه الكرة الصغيرة وتناثرت فى فضاء لانعرف مداه . . ومن ١٥ ألف مليون سنة . . ولايزال الانفجار مستمرا وبسرعة هائلة . . ولكى نعرف قوة الانفجار يكفى أن نعرف أن الكون منذ ١٥ الف مليون سنة لا يزال يوالى الانفجار والتباعد والتمدد بسرعة . .

ولايستبعد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن يكون الذى حدث فى روسيا يكون ذرة من ثقب أسود فى حجم واحد على مليون من السمسمة قد اخترقت الفضاء من ألوف ملايين السنين واتجهت إلى الأرض وهى ذات قوة هائلة ووزن بمئات ملايين الأطنان ، ثم اصطدمت فى سيبيريا . . وكان ما كان . .

وهذا هو التفسير العلمى الوحيد الذى يقبله العلماء الآن بوجوه جادة صارمة . وسوف يتمسكون بهذه النظرية حتى يظهر تفسير جديدا !

(٣)

أما علماء (الروح) أو الدراسات الروحية فهم لم يندهشوا لظاهرة الأجسام المضيئة ، وأذكر أن حديثا دار بينى وبين المرحوم المستشار رافع . وقبل ذلك مع الدكتور أبو الخير ، وكلاهما من علماء الروح . . ولهما تجارب فى استحضار الأرواح والحديث معها عن طريق الوسيط . . وهما يعرفان تماما مثل هذه الظاهرة ، وكذلك كل الذين حضروا جلساتهم الروحية ، ففى الجلسة الروحية تنطفئ الأنوار ويلتزم الهدوء . . وتتشابك ايديهم . . وفجأة تظهر أشياء مضيئة فى سقف الغرفة . . وهى تتحرك بسرعة وخفة . . ولونها بين الأبيض والأخضر . . فإذا كانت الجلسة لعلاج مرض من الأمراض . . فإن هذه الأشياء المضيئة تقترب من الشخص المريض . . ولا تزال تقترب حتى تلمس المكان المريض وتخف آلامه بإذن الله !

فما الذى يفعله هؤلاء الجالسون فى هذه الندوة الروحية ؟ لا شىء . . فقط يجلسون فى هدوء . . وبعضهم يقرأ آيات من القرآن . . أو من الكتاب المقدس . .

وتظهر هذه الأشياء المضيئة الصغيرة الحجم . وكم ظهرت هذه الأشياء المضيئة فى هدوء ، تختفى بهدوء أيضا . . وكلما أعادوا جلساتهم الروحية العلاجية ، جاءت هذه الأضواء . . هم يقولون إنها أرواح طيبة . .

ولذلك فعلماء الروح لايندهشون لما وجده رواد الفضاء فى

سفنهم أو حولها . ولكن مشكلة رواد الفضاء أنه ليس لديهم استعداد لمخاطبة هذه الأرواح . . فهى تجىء فى ظروف نفسية صعبة جدا . . وهى تجىء دون أن يستدعيها أحد . . ولو استطاع أن يسافر على سفن الفضاء أحد علماء الروح ومعه وسيط لأمكنه مساءلة هذه الأرواح . .

ويقولون : إن هذه الأرواح العالية المستوى إنما تجىء من كواكب أخرى . . هذه الكواكب بعيدة عنا . . ولكنها ليست بعيدة عن هذه الأرواح .

وسمعت من المستشار رافع أنه فى إحدى جلساته ظهر ضوء مختلف اللون والحجم . واندهش وحاول أن يعرف من هو ومن أين جاء فقيل عن طريق الوسيط .

إنه من مكان بعيد وأنه ليس مفوضا أن يقول شيئا .

ولما عاد إلى الظهور مرة أخرى قال لهم : إنه من كوكب بعيد جدا !

ولم يظهر هذا الضوء الغريب مرة أخرى !

(٤)

أما علماء الفلك فيسخرون من كل الذى يقال عن الأطباق الطائرة . وينضم إليهم فى هذه السخرية علماء الفيزياء الفلكية . ولقد رأيت الدموع فى عينى العالم الفلكى كوبلاند وهو يضحك! فليضحك ما يشاء هذا فسلوكه ليس علميا . وأنه شخصيا لايعرف كل شىء فى هذا الكون . فالذى يعرفه قليل جدا ، والذى لايعرفه هائل جدا . . ولما سئل العالم الفيزيائى الكبير أينشتين عن الذى يعرفه عن هذا الكون قال : لو وضعت طابع بريد على رأس مسلة فرعونية ، فإن الذى أعرفه هو فى حجم طابع البريد أما الذى أجهله فالمسلة . . والف مسلة أخرى ! وهناك عبارة أخرى للعالم الفيزيائى نيوتن . قال : إنه مثل طفل صغير يلعب بزلطة على ساحل محيط الحقيقة المجهولة ! وهذا هو تواضع العلماء . . أو هذا هو سلوك الذين يعرفون اقدارهم وجهل الإنسان . . مع أن نيوتن هو أعظم عقلية خلقها الله . وأينشتين من عباقرة العلماء . .

أما الذى اضحك العالم كوبلاند فهو أن هناك حقيقة بسيطة جدا . وهى أن هذه الأطباق الطائرة أو هذه السفن الصغيرة المضيئة أو الكائنات التى تظهر فى سفن الفضاء وحولها ، لابد أن تجىء من كواكب أخرى . . وليست هذه الكواكب فى مجموعتنا الشمسية . لأن كواكب المجموعة الشمسية لاتصلح لحياة الكائنات . . إذن لابد أن تجىء من كواكب أخرى فى المجرة (مجموعة ألوف ملايين النجوم التى تدور حولها ألوف ملايين الكواكب مثل الأرض) . .

أما المسافة بيننا وبين أقرب كوكب خارج المجموعة الشمسية فتحتاج إلى ألوف السنين ـ هذا إذا كان الطبق الطائر ينطلق بسرعة الضوء التى هى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية . أما سرعة سفن الفضاء الآن فلا تزيد سرعتها على ٢٥ الف ميل فى الساعة ! يعنى أنه لاتوجد مثل هذه السفن أو الأطباق أو الكائنات الضوئية . . ثم ما الذى تريده . . وما الذى اخذته منا أو عنا ؟ . . هل تقطع هذه المسافات الهائلة فقط لكى تمر بجو الأرض أو تدور حول سفينة؟ . . ثم كيف تكون هناك كائنات قد تطورت بهذه الصورة الجبارة ولا نعرف من البعد من نحن وماذا نملك ماذا نساوى فى الفضاء اللانهائى !

والمعنى : أنه طبقا لهذه المعلومات المتواضعة لايوجد شىء اسمه الأطباق الطائرة أو الكائنات المضيئة ؟!

فما القول فى طلب روسيا رسميا من مصر من ثلاثة شهور أن تساعدها فى معرفة هذه الأشياء الغريبة ؟!

(٥)

من أين جاءت الحياة إلى كوكب الأرض ؟ ومن أين جاءتها الأمراض المتجددة ؟ الجواب : من الفضاء الخارجي . . كيف ؟

الحياة قد ظهرت فى الذرات العضوية ونتيجة التفاعلات الجبارة الضوئية والحرارية من الذرات والغازات والعناصر المكونة للحياة بعد ذلك . . فهناك تفاعلات كيمياثية استمرت ألوف ملايين السنين ولاتزال . .

فنحن البشر قد بدأت حياتنا هناك . . بعيدا عن أرضنا ملايين ملايين الأميال ومن ١٥ ألف مليون سنة . . وانتقلت عناصر الحياة الحيوانية والنباتية على ذرات وبعد ذلك على أحجار ومذنبات إلى الكواكب . . فالإنسان نفسه قد كان ترابا هائما فى الفضاء حتى تكونت خلاياه وفقا لقوانين حكيمة منضبطة . .

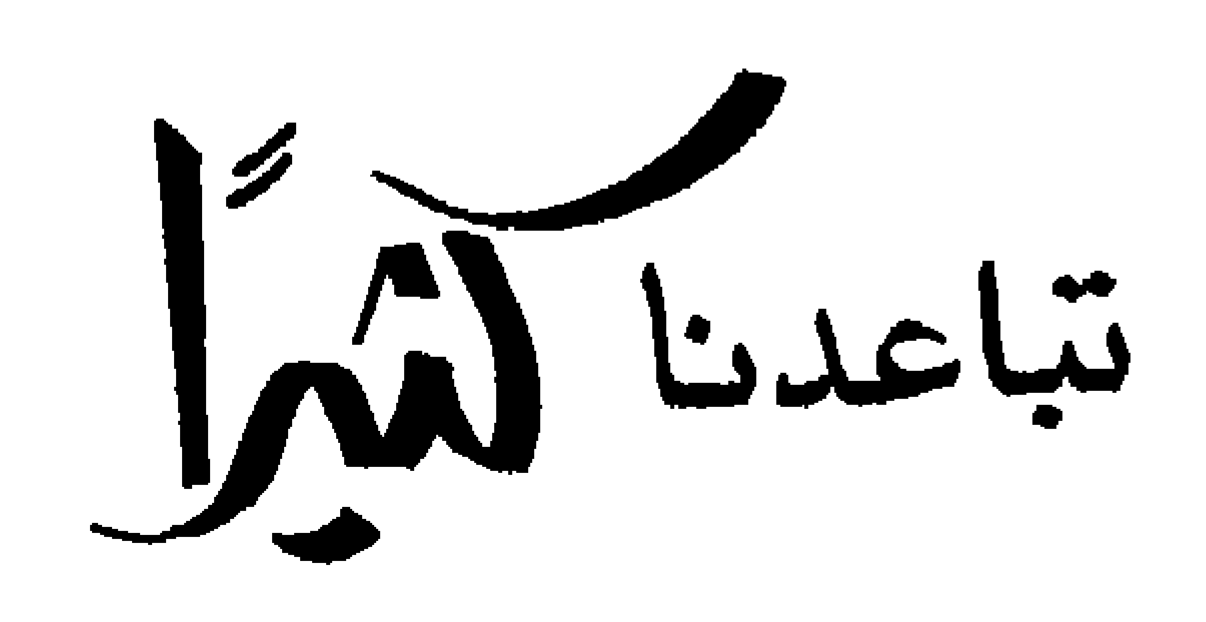
والأرض وكوكبنا هذا يتلقى ألوف الأحجار التى تدخل فى الجو وتتحول بالاحتكاك إلى ذرات . . هذه الذرات هى التى تنتقل إلينا على شكل كائنات ضئيلة . . هذه الكائنات تعيش على الأرض وتقاوم الموت من ألوف ملايين السنين . ثم أن الفيروسات والجراثيم والميكروبات والبكتريا كلها تجىء من الفضاء الخارجي بكميات لا حدود لها . . ثم أننا نفاجأ بها من حين إلى حين . . أمراضا وآفات وأوبئة لم نسمع عنها ولم نتهيأ لها .

ومادام الفضاء يمطرنا يوميا وإلى الأبد بما لا نهاية له من الذرات والجسيمات العضوية التى تم تكوينها فى تفاعلات كهربية وذرية

وتتعرض للبرودة الشديدة والحرارة الهائلة وتبقى مع ذلك قادرةعلى بدء الحياة من جديد فلا نهاية لما سوف يظهر على هذه الأرض فى إنسانها وحيوانها ونباتها من الآفات والأمراض والأوبئة !

وقد رصد العلماء الروس أن ظهور الأوبئة فى الحيوانات والأمراض فى الإنسان والآفات الزراعية يظهر عادة بعد كل مذنب يسقط على الأرض . . أو يقترب منها . . ولاحظ أيضا أن الأمراض قد ظهرت فى أوقات واحدة فى أماكن مختلفة من العالم منذ ظهور الأطباق الطائرة أو هذه (الأشياء المجهولة الطائرة) .

وأن سفن الفضاء التى نبعث بها إلى الفضاء لايمكن أن تعود دون أن تحمل بذورا لا نهائية لأمراض جديدة سوف نعانى منها طويلا . . فبعد أن كانت تهبط علينا الأمراض أصبحنا الآن نسعى إليها !



زرت المخرج الفنان محمد سالم فى أول عهده بالمرض . وكان مثل كل المرضى ينظر إلى عيون زائريه ليعرف منهم خطورة مرضه ظنا منه أن زواره لابد أنهم سألوا وسمعوا وعرفوا الحقيقة التى لايذكرها الطبيب إلى أهل المريض . . وضحكنا كثيرا وتذكرنا رحلاتنا إلى بورسعيد وكمال الملاخ ومصطفى شردى وجحا والشاعر محمد قورة . . والصديقين إبراهيم سعدة وفاروق سعدة . . وكانت بورسعيد أيامها أجمل ألطف وأرق . . وكانت نموذجا للأسرة الواحدة فالناس يعرفون بعضهم البعض تماما وينادون ويتاقشون فى الشوارع . . والذين فى أول الشارع يرون ويعرفون الذين فى آخره . . وكنا سعداء فى تلك الأيام . . فنحن شباب والدنيا لايزال طعمها حلوا وأحلامنا أكبر من واقعنا وغدنا أكثر جمالا من يومنا وأمسنا ـ هكذا كنا نقول . . وكان محمد سالم قد اكتشف عددا كبيرا من النجوم رجالا ونساء . . وكان لايزال يدخر الكثير للشاشة الصغيرة . .

ولابد أن ننشغل بعضنا عن بعض . . وأن تستغرقنا آمالنا وهمومنا . . آمالنا التى هى همومنا . . ثم أصبحت لنا هموم بلا آمال . . وتباعدنا ، ومن حين إلى حين يجىء صوت محمد سالم فى التليفون عاليا ضاحكا . . يذكرنا بالذى كان . . وعنده مشاريع

لمصر وللبلاد العربية ، وعنده كذا وقد حقق كذا وكذا . . وتباعدنا أكثر وتفرقنا . . ومات من مات . . ثم مات أيضا عدد من أعمدة التليفزيون المصرى : أمين حماد وحسن حلمى وسيد بدير . . وكانوا طرازا واحدا من الناس يعملون بأيديهم يحفرون ويبنون ويهدمون ويدفعون أمامهم جبالا من المشاكل والعقد . . وطبيعى أن توجعهم أيديهم وعضلاتهم وأعصابهم . . ولكنهم أقاموا فى الفراغ والعدم مسارح تليفزيونية وصحوة فنية وأدبية . . ومهرجانات فنية غنائية راقصة . . ووسط كل هذا الانتعاش كان بلدياتى محمد سالم طويلا عريضا منكوش الشعر أسود العينين شديد الذكاء مخلصا فنانا . .

وتباعدنا أكثر وأكثر . . وفوجئت به مريضا وفوجئت بمتاعب كثيرة تململ تحت ثقلها . . وتزايدت وتكاثرت وحاصرته وخنقته حتى تمكنت منه فى النهاية يرحمه الله صديقا مخلصا وفنانا أشد إخلاصا وأحد بناة الفن التليفزيونى . .

هبطوا وعادوا !

(١)

ومن حوالى ثلاثين عاما أصدرت كتابين هما :

الذين هبطوا من السماء . . والذين عادوا إلى السماء . وكان موضوع هذين الكتابين أن كائنات جاءت إلى الأرض وعادت وتركت آثارها فى كل مكان من العالم . . فى شمال مصر وعلى حدود مصر وليبيا . . وفى أواسط أفريقيا وجنوب فرنسا وفى بيروت وفى التبت . . وفى الكتابين كثير من الصور . والمعنى : أنه قد تأكد لدينا أن كائنات هبطت على الأرض من عشرات ألوف السنين . وتركت آثارها . جاءت واختفت ولا نعرف لماذا ؟

أما كيف جاءت ، فهذا هو السؤال ؟

أننا لانستبعد أن تكون هناك كائنات أخرى عاقلة غيرنا . . تعيش فى أماكن أخرى من الكون .

هذه الأماكن لابد أن تكون كواكب .

ولكن ليس من الضرورى أن تكون شبيهة بالإنسان .

ولاتمشى على ساقين مثله ولا رأسها فوق . . فالله قد خلق مالا نهاية له من الكائنات المختلفة تماما .

بل إن فى فصيلة الخنافس وحدها حوالى ربع مليون نوع؟! وبقية الحشرات والحيوانات لها ملايين الأشكال . . أما النباتات فلا حدود لاختلافها وتنوعها . ومعنى ذلك أن أشكال الحياة لا أول لها ولا آخر . . وليس مقبولا أن يكون الشكل الإنسانى ، هو الشكل الوحيد للعقلاء فى هذا الكون . . ثم إننا لا نعرف إن كان الإنسان هو أعلى درجات التطور العقلى . . وليس بعيدا أن تكون هناك كائنات أخرى أعقل منا . . سبقتنا بملايين السنين .

فنحن فى الأربعين عاما الماضية قد تقدمنا علميا أكثر مما فعلناه فى ألوف السنين . . فما بالنا إذا كانت هناك كائنات عاقلة سبقتنا بملايين السنين ؟!

إننا لو عشنا على هذه الأرض مليونا أو ثلاثة ملايين ، وكان تطورنا مطردا ، فإن أحدا لا يستطيع أن يتخيل ما الذى سوف يحققه الإنسان على أرضنا أو على الكواكب الأخرى . . ومن يدرى على كواكب فى المجرات الأخرى . . وقد تنظر إلينا كائنات أقل تطورا على أننا نحن من الذين هبطوا أو عادوا إلى السماء !!

(٢)

إن الإنسان فى كل أساطيره قد جعل الآلهة على صورته هو . . أى أن صورته هى الصورة الأسمى . . أو أنه لايتصور إلا نفسه فى كل مكان . . فالطفل صورته صغيرة . . والأب صورته أكبر . . والملك صورته أكبر . . والالهة أكبر وأكبر . . فأينما اتجه الانسان فهو لايجد إلا نفسه أشكالا وألوانا . .

الفراعنة جعلوا الآلهة حيوانات . . تكريما للحيوان . . جعلوا الجميل والجليل شيئا واحدا . . جعلوا النافع والمقدس كائنا واحدا . وجعلوا الشمس والنيل والأرض آلهة أيضا . وما تبقى من القداسة أعطوها للفرعون الذى يملك القوة والمغفرة والجنة وماتبقى من عظمة الملك أعطوها للكهنة . .

ورأينا فى حضارات المايا أن الذين يجيئون من وراء الأسوار مقدسون . وكذلك حضارات الجزر الصغيرة فى المحيط الهادى . . وعندما زارهم المكتشف الإنجليزى كوك وعلى ظهر سفينة كبيرة خروا له . ساجدين . فقد قالت أساطيرهم أن الآلهة سوف تجىء فى جزر عائمة . وكانت سفينة كوك جزيرة عائمة . . وسوف يكون الإله طويلا أبيض اللون أخضر العينين . . وكان كوك كذلك . . ولكنه عندما قسى عليهم لم يطيقوا الصبر عليه . . أصابوه بسهم . . فلما سقط فى دمه أيقنوا أنه ليس إلها . . ولذلك قتلوه !

ومما بهرهم فى كوك أنه كان يدخن والدخان يخرج من فمه!! وأنه كان يضع يديه فى جيب البنطلون فيظنون أنه يضعهما فى بطنه دون أن يموت !!

وكان اعتقادهم أن الآلهة تجيء من بعيد من وراء الأفق . . من وراء الشمس . . وأن الآلهة يجيئون فوق سحب داكنة . . وأنهم يعيشون فى أماكن سامية شفافة . . ولذلك لم يستبعدوا أن تباغتهم الآلهة بوجودهم .

ولذلك سجلوا رحلات الآلهة على الحجر ، أو أن الآلهة هم الذين سجلوها ، وفى جزر فى المحيط الهادئ رءوس ضخمة لهؤلاء الآلهة . . رءوس كبيرة وأجسام ضئيلة . وكل الرءوس والعيون تتجه إلى ناحية واحدة . وهم لم يعرفوا من الذى أقام هذه التماثيل ، ولماذا تركوها واختفوا وراء الشمس ؟!

ومن العجيب حقاً أن هذه الجزر لم تر طبقاً طائراً واحداً . .

(٣)

والنقوش الموجودة على جدران الكهوف على حدود ليبيا والجزائر فى منطقة اسمها (جبارين) تشبه رواد الفضاء فى العصر الحديث . . فالنقوش الجدارية التى يرجع تاريخها إلى عشرين أو ثلاثين ألف سنة ، تجد فيها الرجل جالسا فى ملابس رواد الفضاء . . وأمامه تابلوه به عقول الكترونية . . ومن حوله أبقار وحشية تطير فى الهواء . . خوفا من سفن الفضاء هذه !

فالمنطقة بين مصر وليبيا كانت مغطاة بالغابات الكثيفة . أو أن هذه الحيوانات لديها القدرة على أن تكون إنسانا عاقلا ، أو أن الإنسان العاقل يستطيع أن يتحول إلى كائنات من أى نوع يشاء ، كما تصور لنا الأساطير الإغريقية القديمة . .

مثل هذه الرسوم الجدارية موجودة فى بيرو ومنقوشة على الحجر . . وهى تسجل أن كائنات جاءت وعادت لأسباب لاتزال مجهولة . ولم نعرف حتى الآن لماذا سجلت وجودها ورحلاتها على الأحجار . . ما هى الرسالة التى تريد أن تنقلها إلينا . . وإذا نحن فهمنا هذه الرسائل .

ومن ألوف السنين ، فما الذى يمكننا أن نفعله فى ذلك الوقت أو حتى فى هذا الوقت . . لقد جاءت وسجلت رحلتها ذهابا وإيابا واختفت وضاعفت حيرتنا ؟!

ولم نر فى هذه النقوش صورة لطفل . . وإن أكدوا لنا هناك رجلا وامرأة . . ولكن لم يتركوا لنا ما يدل على أنهم يأكلون أو يشربون .

ولكن لهم كل ملامح الإنسان . . فهل الشكل الإنسانى هو الشكل الوحيد الممكن للكائن العاقل . . وإن كانت رؤوسهم أكبر حجما وأجسادهم أصغر . .

وهم مثل التماثيل القديمة فى الحضارات القديمة لايعرفون الابتسامة أو الضحك . . ففى الحضارات الفرعونية لايضحك إلا المهرجون الذين يأتون بهم من الجنوب لكى يدخلوا البهجة على قلب الملك . . أما الملك نفسه فلا يضحك . . فالضحك لايتناسب مع الوقار والقداسة وهموم الحكم ، كما أن الضحك يرفع الكلفة بين الحاكم والمحكوم . . فهل هذه الكائنات قد جاءت لتحكم الأرض . . تحكم الإنسان ؟

إننا لم نر لذلك أثرا فى أى مكان !

(٤)

ونحن عندما أردنا أن نقول لسكان الكواكب الأخرى ـ إن كان هناك سكان ـ إننا أحياء فى واحد من كواكب المجموعة الشمسية التى تقع فى الطرف الجنوبى من (الطريق اللبنى) قد تحدثنا إليهم بلغتنا . . فنحن لا نعرف لسكان الكواكب الأخرى أية لغة . . أو أية وسيلة للاتصال . . وحاولنا فى رسائلنا إليهم أن نكون فى غاية البساطة . فوضعنا المعادلات الرياضية والرسومات الهندسية . .

ولكن عند علماء الفلك يقين بأن كائنات أخرى موجودة . . فى مكان من الكون . . لأنه ـ بالفعل ـ لايمكن أن نكون نحن وحدنا فى هذا الكون . . وأن الكون الهائل مخلوق من أجل أن نتفرج عليه أو لانتفرج . . نتأمله أو ننشغل عنه . هذا وهم وهلوسة من صنعنا نحن . . ظنا منا أننا أحسن وأعظم وأروع مخلوقات الله . .

لا بد أن تكون هناك كائنات أخرى . . هل يا ترى لو قالت الصراصير مثلا أنها المخلوقات الوحيدة فى هذا الكون . . وأن الكون من أوله لآخره مخلوق لكى تتفرج عليه ، هل ننظر إلى مثل هذا الرأى باحترام ؟ . . طبعا لا . . وكذلك ما نقوله عن أنفسنا .

إذن العقل الانسانى لايستبعد أن تكون هناك كائنات أخرى . . بل يتحتم أن تكون هناك حياة عاقلة ذكية مبدعة فى مكان ما .

وليست الآثار التى تركوها عندنا والتى تحدثنا عنها هى الدليل الوحيد على ذلك . . وإنما هناك الفضاء (الخارجى) . . أو البعيد عنا ألوف ملايين السنين الضوئية مما يدل على أن (كائنات ما) هناك . .

والأدلة على ذلك بعض الأصوات المنظمة التردد . . وبعض الضوضاء التى تسجلها المراصد . . وبعض الأشياء التى تنطلق بعيدا ذهابا وايابا . . نحن لانعرف . ولكن نظن أو نتخيل !

وأمامنا وقت طويل لكى نتأكد من أن خيالاتنا لها أساس علمى . . أو لها وجود . . إما بأن نلتقى بهؤلاء العقلاء ، أو أنهم هم الذين يجيئون إلينا . . فى أطباق طائرة . . أو فى أشياء طائرة . . أو على ظهور نجيمات أو مذنبات يهبطون بها سالمين إلى الأرض . . وتكون النجيمة الواحدة فى مساحة القاهرة أو حجم الهرم ـ مثلا !

(٥)

ولابد أن يكون علماء الفضاء والفلك والفيزياء الفضائية قد وصلوا إلى ما يشبه اليقين . بأن هناك فى مكان ما شيئا ما . . أو كائنا ما عاقلا ، وأن هذا الكائن يمكن أن نتصل به . . .

ولهذا السبب أرسلت هيئة الفضاء الأمريكية سفينة فضاء من سنوات فى طريقها إلى (الطريق اللبنى) وفى هذه السفينة معلومات صوتية ولونية عن سكان الأرض . . رسم لرجل وامرأة . . وخريطة لموقع الأرض . . ولوحات لكبار الرسامين . . وتسجيلات لجميع لغات الأرض بما فيها اللغة العربية . . وصور لكل أجناس الإنسان وكل مراحل ميلاده ونموه وموته . . وكل أنواع طقوس الإنسان فى الأكل والشرب والرقص والعمل والصناعة . .

إننا نريد أن نقول لهم : إننا نحن هنا على هذا الكوكب . . اعرفونا . . تعالوا إلينا . . إننا نريد أن نعرفكم . . وإننا على قدر كبير من العلم . . فهل نحن على قدر كبير من العلم ؟ نحن الذين نقول ذلك . .

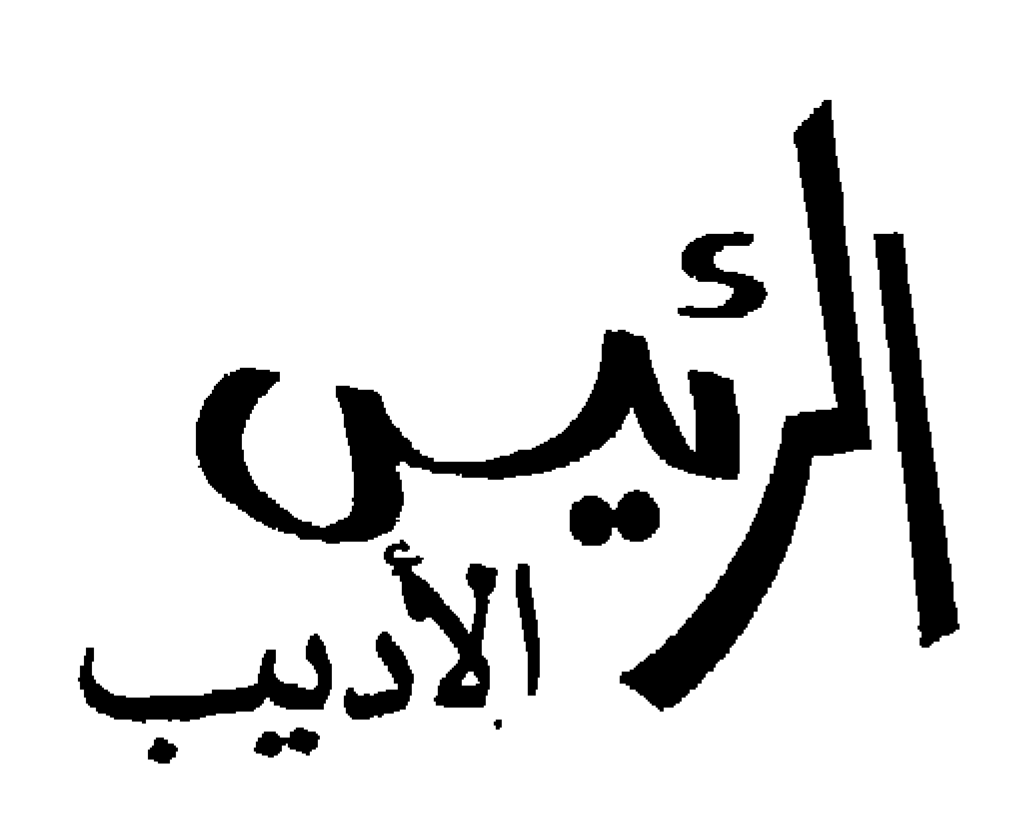
وهل يا ترى إذا استمعوا إلى أغنية سيد درويش (زورونا كل سنة مرة) يدركون المعنى الرومانسى لهذه الأغنية . . أو يرون أن الشعوب التى تطرب لمثل هذه الموسيقى والغناء لا تساوى المشوار الطويل لرؤيتها ؟!

إنها حيل من أجل أن نلفت أنظار وأسماع هذه الكائنات .

ولكن متى يحدث ذلك !

إنا لانعرف ، فنحن قد أرسلنا سفينة من سنوات ، والسفينة تنطلق بسرعة ٢٧ ألف ميل فى الساعة . . فى حين أن المسافة التى بيننا وبين هذه الأصوات المنظمة التردد تصل إلى ١٢ ألف مليون سنة ضوئية . والسنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة . . وهى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية × ٦٠ × ٦٠ × ٢٤ × ٣٦٥!!

أملنا الوحيد هو أن تعترض هذه السفينة بعض الأطباق الطائرة ، أو تلك الكائنات المضيئة التى اعترضت سفن الفضاء الروسية والأمريكية . . فإذا حدث فإننا لانعرف كيف تنظر هذه الكائنات إلى السفن الفضائية ، وهل تراها شيئا هاما أو لعب عيال . . ولذلك يجب أن نبحث فى الألف سنة القادمة عن وسيلة أسرع وأكثر تطورا !



لابد أن يكون الرئيس الفرنسى أديبا أو فيلسوفا . أو يحب الأدب والفلسفة . وأن يكون قادرا على التعبير . . كذلك كان الرئيس ديجول والرئيس ميتران . ولو قرأت كتب ميتران لأعجبك هذا الرئيس الذى أخطأ طريقه إلى السياسة . فهو أديب وهو يتذوق الأدب والفن والمسرح . وفى كتبه نظرات عميقة لكل مظاهر الثقافة الفرنسية . .

وإن كان هو نفسه لايرى أنه أديب . ومواطنوه يصفونه بأنه نموذج للمثقف الفرنسى . ولكنه يرفض ذلك لأنه لايعرف لغة أجنبية ولايفهم لا فى الفلك ولا فى الاقتصاد . .

والكتاب الذى صدر له أخيرا وهو حديث بينه وبين الكاتب الأمريكى اليهودى ايلى وسل الحائز على جائزة نوبل فى الأدب . قد أكد الكثير من المعانى . وهو نموذج للرجل الفرنسى المتناقض السلوك . وهو فى هذا الكتاب ـ الذى باع مليون نسخة فى أسبوع واحد ـ شهادة أمام التاريخ . يبرئ نفسه من أنه كان متعاطفا مع حكومة فيشى النازية أو كان عدوا لليهود ـ زوجته يهودية . ولكنه ككل الفرنسيين يحبون الابهة والفخامة ووطنيون متعصبون ويكرهون السلطة .

وهو يصف نفسه بأنه رئيس كل الفرنسيين وكل قراراته ومشاعره تؤكد هذا المعنى .

وهو من أسرة كبيرة ، وأبواه من الطراز المحافظ المتدين . فهما يتمسكان بالكاثوليكية . وكان ميتران يتردد على الكنيسة وهو شاب . ولم يعد يفعل ذلك عندما كبر . . ولكن ميتران قد ولد والكتاب في يده . . أى كتاب فى الأدب والفلسفة والسياسة والفن .

وقد نجح فى أن يجعل لبلاده خطا أوروبيا قويا . وكان كارها لروسيا . ولم يكن كارها لأمريكا رغم أنه قد اصطدم بها كثيرا . ولكن أهم ما يميز فلسفة ميتران هو أن أحلام ديجول فى جعل فرنسا دولة عظمى مبالغ فيها كثيرا . ففرنسا يجب أن تؤمن بأنها دولة غنية صناعية قوية - ولكنها لا هى أمريكا ولا هى روسيا . إنها دولة متوسطة عظيمة !

وهو يختلف عن الرؤساء السابقين عليه . فديجول هو تجسيد الأبهة والعظمة الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية ثم أنه حررها من عبء المستعمرات التى كانت تتسلط عليها . .

والرئيس بومبيدو كان داعية الصلابة والتماسك الفرنسى فى مرحلة الانتقال من الزراعة إلى الصناعة والتحولات الاجتماعية . .

وكان الرئيس جيسكار دستان رسول الروح العصرية الفرنسية والأبهة المعقولة . .

ولا يزال ميتران المريض أقوى وأوضح صورة للرجل الفرنسى المتعاظم المحب للحياة والجمال وفرنسا أولا وقبل أى شىء آخر - وداعا !

أعظم دولـــة !

يبدو أن عمدة باريس لمدة ١٤ عاما جاك شيراك (٦٢ سنة) والذى فاز بالمركز الثانى فى المعركة الأولى هو الذى سوف يفوز بمقعد الرياسة . يبدو . فالفرنسيون مزاجهم متقلب ثم إنه يعمل على عكس ما ينصحه المستشارون . فقد اختار ابنته كلود (٣١ سنة) مستشارا خاصا . فهى التى تخطط له مساره فى الحملة الانتخابية . بينما كان منافسوه يتحدثون فى التليفزيون مع الصحفيين قررت هى أن يذهب أبوها إلى المدن الفرنسية . وأن يواجه الناس ويتحدث إليهم . وقد ضرب رقما قياسيا فى مصافحة كل من يمد ولايمد يده . وفى تقبيل الوف الأطفال . والقبلة على خد طفل تشعر بحلاوتها أمه . . وبذلك يكون قد أصاب خدين بقبلة واحدة !

كما أن ابنته الكبرى لورانس (٣٦ سنة) هى التى قررت أن يرتدى أبوها كل يوم بدلة . فهى تؤمن بأن رشاقته وقوامه الرياضى وابتسامته الجاهزة هى إقصر الطرق إلى قصر الإليزيه .

شيراك يتحدث عن أسرته التى هى من المدرسين أبناء الطبقة المتوسطة . ولكن أباه كان غنيا ثم أنه ولد فى أرقى أحياء باريس . ومع ذلك لم يبتعد عن الريف الفرنسى . أما زوجته فهى من أسرة نبيلة غنية أيضا . .

وقد اختار لنفسه عقيدة الأمل بدلا من شعائر اليأس التى يتحدث عنها خصومه . وهو يعرف أنْ المشكلة الأولى هى البطالة . ولذلك سوف يفعل فى فرنسا ما فعله جون ميجور فى بريطانيا : تخفيض الضرائب .

وكان شيراك وزيرا وعمره ٣٤ سنة ورئيسا للوزراء وعمره ٤٠ سنة . ثم بقى عمدة لباريس ١٤ سنة . ورشح نفسه للرياسة مرتين سنة ١٩٨١ وهزمه ميتران وسنة ١٩٨٨ وهزمه ميتران أيضا .

وقد نزعت أسرة شيراك صورته وهو فى الأربعين ونشروها فى كل مكان . الصورة لشاب رشيق القوام يرتدى بلوفر وقميصا بلا كرافتة والسيجارة فى فمه . . شاب فرنسى حليوة وذئب أيضا ـ وكل الفرنسيين بمن فيهم ميتران ذئاب مدربة تدريبا رفيعا على حب الحياة وعشق الجمال وتذوق الفن والأدب والإيمان المطلق بأن فرنسا أعظم دولة فى العالم ـ وكذلك الشعب الفرنسى !

إنهم يغتالون أيضا !

عندما جاءت الأديبة ياعيل ديان إلى القاهرة ورافقتها أنا مع الزميلة نجوى محمد المحررة بمجلة أكتوبر قالت لى : إنها تشعر بالأمان على أطفالها فى القاهرة أكثر من تل أبيب !

أما الآن بعد اغتيال إسحق رابين برصاص واحد من شعبه ودينه فلا أمان لأحد فى إسرائيل . فليس المجرم اليهودى وقد كانت البداية عنيفة ومن فوق . .

وتكررت مأساة أنور السادات .

فالرجلان احدهما انتصر فى ٦٧ والآخر فى ٧٣ والسادات بدأ السلام ورابين أكمله . السادات قتل فى يوم عيد الجيش والشعب فاغتاله واحد من ضباط الجيش وعند المنصة . . ورابين اغتاله واحد من الشعب وهو يغنى للسلام عند المنصة أيضا . . وكلاهما حصل على جائزة نوبل . . وكان اهتمام أجهزة الأمن فى إسرائيل بمراقبة المجرم العربى ، ولم يخطر على بال أحد أن الإجرام فى النفوس من أيام قابيل وهابيل ، وأن المجرم اليهودى ظل يقترب من هدفه حتى أصبح على مسافة ذراع واحدة . . فمن الذى قتل رابين؟

أما أرملته فهى اشجع امرأة فى إسرائيل لأنها قالت إنه ليس

المجـرم هو هذا الشـاب . . وإنما الذين خلقـوا له هذا الجـو . . الذين عـبأوه بالكراهيـة والنار . . الذين قـالوا له أن رابـين مـجـرم . رابين خائن ، والذين صنعوا تمثالا نازيا لرابين وأطلقوا عليه الرصاص . . إن القـاتل هو زعـيم المعـارضـة ناتانيـاهو الذى أشـاع البـارود والكراهية . . حتى جعل حياة رابين وزوجته وبيريز وزوجته هدفا قوميا ودينيا . .

وسـوف يمسحـون الدمـوع عن عين وبالعين الأخـرى يراقـبـون ويحققـون ويحاكـمـون ويغيـرون الإجراءات الأمنيـة . . املا فى أن يعرفوا جذور الجريمة التى لن تتوقف . . لقد بدأت من فوق وسوف تبـقى فـوق طويلا . . وسـوف تغـرى الآخـرين بارتكاب جـرائم مختلفة . .

إنها نفس القـصـة التى جاءت فى التـوراة عندمـا سئل القـاتل كيف قتل أخاه . فأجاب : وهل أنا حارس لأخى ؟!

وفى إسرائيل لم يكن هناك حـارس لرابين . فهل هو تواطؤ على اغتـياله . . هل هو إهمـال . . هل هو إفراط فـى الثقـة بأن اليهودى لايقتل يهوديا ـ هذه القاعدة لم تعد صحيحة منذ اليوم . . بل كان من الممكن أن يموت اثنان فى يوم واحد : رابين وبيـريز هكذا كـان التخطيط . . وبذلك يكون المجرم اليهودى قد فتح باب الحزن على مصراعيه ، وباب الندم وباب الصدمة العنيفة . وكـان من أحلام اليهود أنهم يريدون أن يكونوا شرق أوسطيين . الآن هم كذلك !

ليس الموقف سهلا . . فإسرائيل لأول مرة تحارب فى جبهتين : العرب والسلام معهم . واليهود والسلام مع أنفسهم !

سلام
على السلام !

نزلنا من طائرة الرئيس حسنى مبارك ، تماما كما نزلنا من طائرة الرئيس السادات . الجو رهيب . . المرة الأولى كان غامضا غامرا أن ننزل أرض العدو . . والأضواء تبهر عيوننا فلا نرى شبرا أمامنا . . وكل زعماء إسرائيل قد وقفوا صفا واحدا . ونزل السادات كأنه على سطح القمر . . والكرة الأرضية كلها تتفرج على الرجل الجرىء الأعزل إلا من سلاح السلام . . لقد كانت خطوة صغيرة لمصر ، خطوة كبيرة للعرب . .

ومع حسنى مبارك كانت الشمس طالعة . . والمطار خاليا . كأننا نزلنا على كوكب آخر مهجور . . لا أحد . فالذين كان من الضرورى أن يستقبلوه قد تفرقوا هناك يستقبلون الزعماء والرؤساء ، وأعذارهم مقبولة مقدما ، فذلك يوم القيامة فى إسرائيل ، فالحزن عظيم والحداد شامل . . لقد قتل الابن أباه فى يوم عيده وهو يغنى ويرقص من أجل السلام الذى وعد بأن يحققه مهما كانت التضحية .

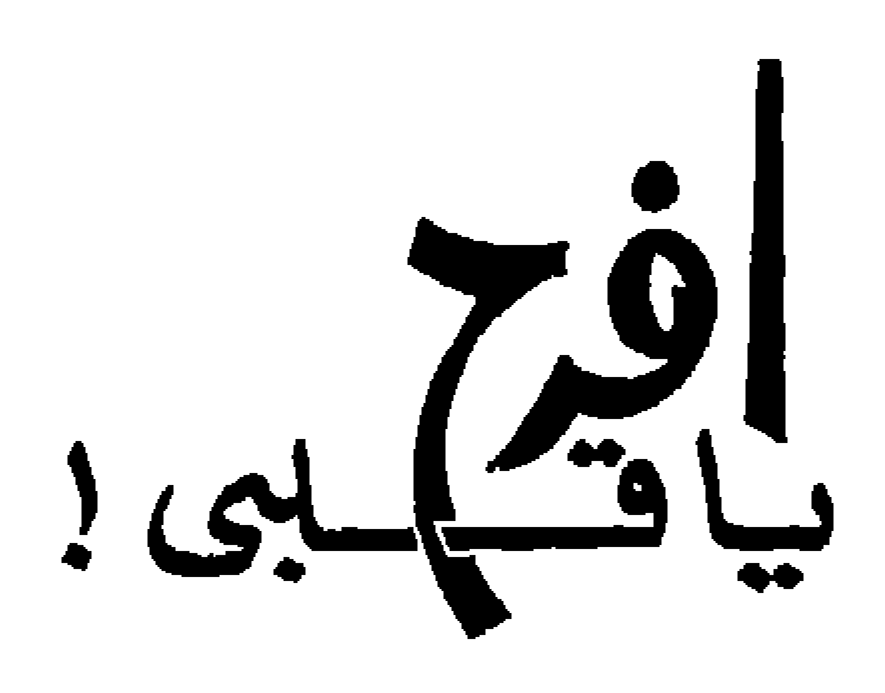
وعلى الرغم من أن حسنى مبارك قد هبط إسرائيل فى يوم الكرب العظيم فإن الناس لم يستطيعوا أن يخفوا ابتسامة الرضا . أنه جاء . فقد كانوا ينتظرون ذلك من وقت طويل . وقد استطاع رابين أن يحقق لشعبه هذه الزيارة المليئة بالمعانى وهو فى العالم

الآخر . وامتدت الأيدى إلى حسنى مبارك تشكره على أنه جاء - لاتهم المناسبة المأساوية ولكنه جاء . شكره كلينتون وشكره الملك حسين وشكره عيزرا فايتسمان وشكره بيريس . . وكذلك بطرس غالى على أنه جاء . .

وكانت لحسنى مبارك عبارة مشهورة وهى : إن الذين يشجعون الإرهاب سوف يندمون على ذلك . . وهذا ما حدث فى إسرائيل ، فالذين شجعوا على اغتيال رابين وكل زعماء حزب العمل لأنهم فرطوا فى أرض إسرائيل مقابل السلام قد اغتالوا أمن وسلام شعب إسرائيل . .

وعلى الرغم من الهموم الثقيلة فإن إسرائيل فقد تحركت بسرعة تراجع حساباتها وتعيد النظر والسمع إلى كل الذين شجعتهم على حمل السلام ضد رابين ويهددون رابين وغيره . انتهى الأمر . فنصف الشعب قاتل للنصف الثانى . ونصف الشعب يجب أن يحذر نصفه الآخر . . (قابيل) صار يتربص بهابيل اليوم وغدا !

فسلام على السلام بين أبناء إسرائيل !!



كما حدث عند اغتيال السادات انطلقت الأغانى والزغاريد فى كثير من البلاد العربية : افرح يا قلبى .. ويا ليلة العيد .. واتمخطرى يا حلوة يا زينة .. لأن رجلا مصريا عربيا مسلما نادى بالسلام وعودة الأرض المحتلة إلى أصحابها فى مصر وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان .. هذا الذى قتلناه فى مصر هو الذى بدأ الطريق المضىء الأخضر إلى فلسطين والأردن وغدا إلى سوريا ولبنان . ولا طريق غيره ، طالت الألسن أو قصرت ، تمزقت الحناجر أو أخرست ..

والطريق الذى بدأه السادات لن يتوقف عند رابين . فبريز يؤكد أن المأساة فادحة ولكن السلام حياة الملايين ومستقبلهم .. والقتيل جندى نجا من الحرب ومات فى إحدى مواقع السلام وسوف تمضى الحروب ضد الموت والكراهية والدمار من أجل الحياة الرياضية فى أمان وسلام ورفاهية .

وإذاكانت هناك أخطاء أمنية ـ كما حدث فى حراسة السادات ـ فلابد من معرفتها والتحقيق فيها وإصلاحها وبسرعة .. وتمضى الحياة .. فإسرائيل أعلنت الحداد دقائق .. وتمضى التلامذة فى دروسهم والعمال فى مصانعهم والموظفون فى مكاتبهم .. فلا يوجد أى شىء يمنع الناس من الحياة وبناء الوطن . فإذا كان قائد قد

سقط زحف مكانه قادة أخرون وتمضى الحياة . . وتجف الدموع ، وتنتقل الأحزان إلى القلب وتعود البصيرة إلى العقل . حتى لايحدث ما حدث . . أو حتى يتباعد ما يمكن حدوثه . .

حسنى مبارك قبل سفره إلى إسرائيل قال : إن حزب العمل ومعارضيه يريدون السلام . . لقد وقعنا السلام مع المعارضة واستعذنا طابا من حزب العمل . . إنهم جميعا يريدون السلام ولكن بطرق مختلفة وحسب الظروف الانتخابية . ولكنهم ، ولكننا نريد السلام حياة لنا جميعا . .

أما كلمات السيدة ليا رابين فسوف تبقى عشرات السنين موجعة لشعب إسرائيل : لأنها تقول إن القاتل هو زعيم المعارضة وحزبه . . فهم لم يعطوا للقاتل المسدس والرصاص ولكن ملأوا قلبه بالكراهية . . فإذا كان المسدس محشوا بالرصاص ، فإن القاتل نفسه هو مسدس آخر محشو بالكراهية والانتقام .

فهل هو وحده أو هو مقدمة لطابور طويل من السفاحين من بنى إسرائيل لزعماء إسرائيل ؟!

إرهابى اعترف !

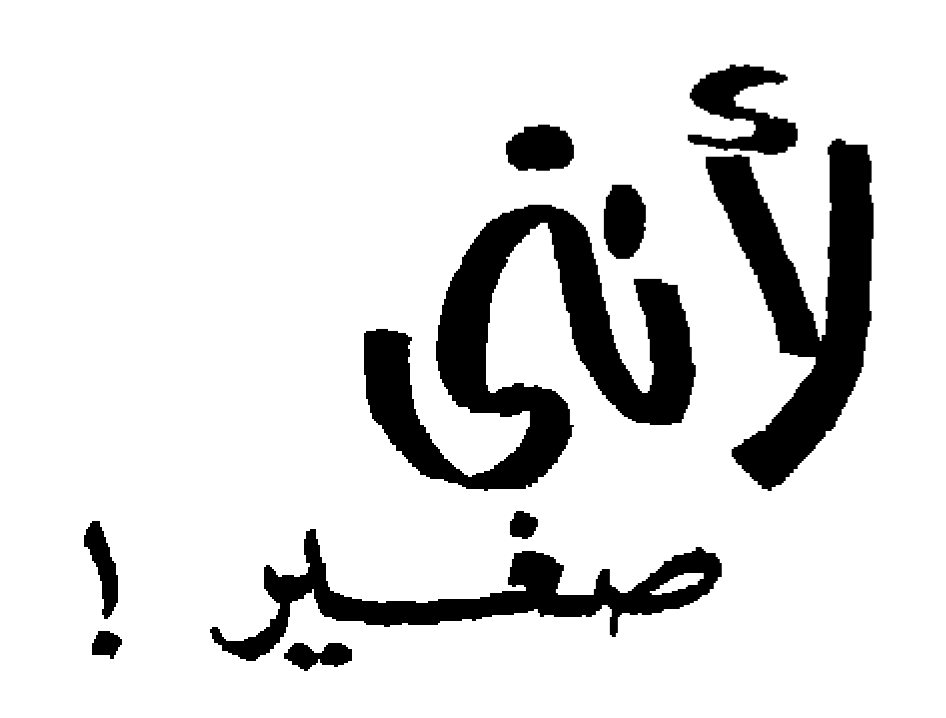
أخيرا جدا أصبح موضوع العنف أو الارهاب ملفا مفتوحا على الشاشة وفى الصحف . وقد استراح الناس إلى هذه المكاشفة . . ولكن شعور الناس بالراحة كان أكبر دليل على أن الناس لاتعرف الكثير عن هذه المأساة . . رغم معايشتنا لها سنوات طويلة . . لأن الذى جاء على الشاشة معلومات قليلة جدا . . ثم جاءت الوثيقة الحية للإرهابى التائب والتائه أيضا . وتحدث عن كيف قام هو بتجنيد الناس وكيف حولهم إلى أسلحة بشرية تنطلق فى أى اتجاه دون وعى . . وإنما هى تتلقى الأوامر وتنفذها . ثم تحدث عن الانحلال الداخلى وارتكاب المعاصى . . وهم لايعتبرونها معصية لأن أمير الجماعة يحمل عنهم أوزار كل خطأ فهو معصوم من الخطأ . .

وكنت منذ أيام اشهد مهرجان (الجنادرية) للثقافة الشعبية فى السعودية . وقد استراح الناس على كل المستويات إلى الاعترافات التى أدلى بها الارهابى الذى تاب وأناب . . واذاعة التليفزيون أكثر من مرة . . وكانت الراحة أعمق وأعرض بالحكم الذى أصدرته السعودية بتجريد أحد مواطنيها من الجنسية ـ أسامة بن لادن ـ الذى يعيش خارجها متنقلا بين السودان وأفغانستان يشجع على الإرهاب وقتل الأبرياء وينفق الملايين التى ورثها عن أبيه . .

واسعد الناس أكثر أن يعلموا أن الحكومة السعودية على استعداد لطرد وتجريد أى مواطن من جنسيته إذاكان يساند الارهاب . وإذا أية دولة عربية ـ مصر خصوصا ـ قد بعثت لها بمعلومات عن أى سعودى يساند الإرهاب فسوف تقطع رقبته فى مكان عام . .

وتناقش الناس ، مصريون وسعوديون وأجانب فى اعترافات الإرهابى المصرى بل إن الكثيرين قد سجلوا هذا الحديث المخيف وبعثوا به إلى أقاربهم فى أمريكا واستراليا وكندا . .

وعلى مائدة عشاء أسرة مصرية شجاعة دارت مناقشات طويلة عريضة واعية . . وكلها تتساءل : لماذا لاننتهز هذه الفرصة ونشرح علميا بالضبط ما الذى حدث . وكيف حدث . . وكيف لايحدث . . ويكون الكلام عن المشاكل النفسية والتربية الاجتماعية والمدرسية والدينية بالعقل وليس بالزعيق والتشنج !



(١)

لعلك تذكر أننا جميعا عندما نسير على شاطئ البحر ، فإننا ننحنى ونلتقط حجرا ونرمى به البحر . . لماذا ؟

لأن البحر وموجه واتساعه وعمقه يجعلنا نشعر بأننا صغار . . وفى نفس الوقت ، لأننا على الشاطئ ، فنحن آمنون منه . . ولذلك نعبر ـ لاشعوريا ـ عن خوفنا بأن نلتقط حجرا ونرميه به . . ويكون فى ذلك شعور بالارتياح . . لأننا ضربنا البحر ، ولم يستطع البحر أن يفعل بنا شيئا .

ولكننا لم نقاوم هذه الرغبة فى أن نرميه بحجر !

ولا أزال أذكر يوم سافرت من طوكيو إلى لوس انجلوس عبر جزر هاواى والمحيط الهادى . . أول شىء فعلته عندما هبطت من الطائرة أن أسرعت إلى داخل سيارة . . إلى الفندق إلى غرفتى . . ونزلت بسرعة . . الآن اتذكر بوضوح ماذا فعلت ولماذا . . سرت فى الشارع . . ودون تفكير أحسست بالإرهاق فاخترت سيارة كاديلاك . . وجلست على رفرفها . . ولم ألاحظ أنه مبلل بالزيت والشحم . أما سبب الجلوس وبهذه السرعة ودون التفات إلى قذارة السيارة ، فهو شعور مفاجئ بالتعب . . وسبب هذا الشعور هو

إحساسى بأننى صغير والمدينة كبيرة . . وأننى ضئيل جدا فى هذه المدينة الواسعة والدولة الغنية القوية . . ودون شعور منى رحت إدق بيدى على أبوابها . . ولم يكن هناك أى سبب لذلك . . إلا شعورى بأننى صغير ضئيل . . وشعرت بالضياع فى هذا البلد الكبير الواسع الجميل الذى لايدرى بى ولا ما الذى فى دماغى ولا أحلامى ولا خيالى ولا مخاوفى . وطبيعى ألا يشعر ، وألا يشعر أى أحد . . ولكنى أستجيب لما فى داخلى من شعور بالضياع وعدم التوازن . .

شىء عجيب أن أنحنى على الأرض وأجد عودا من الحديد . . أمسكه فى يدى وأتوكأ عليه . . مع أنه لا داعى لذلك . ولكن المعنى هو : أنه فى مواجهة الكبير والضخم والقوى والشاسع يشعر الإنسان بعدم الأمان فيحاول أن يتساند على الجدران ويتوكأ على أعمدة النور . .

شىء من ذلك يحدث لكل الوافدين من الريف إلى القاهرة . وهذه هى أول نقطة ضعف ينقض عليها الشطار الإرهابيون الذين يتصيدون الأعوان من الخائفين الجائعين البائسين .

(٢)

يوم جئت من المنصورة إلى القاهرة سكنت فى شارع الأمير حسين بالزمالك مع والدى فى قصر نعمت هانم يكن . وكان والدى يعمل مشرفا على أرضها وأرض أخيها عز الدين يكن . . وقبل ذلك عدلى باشا يكن . . ما أبعد المسافة فى الزمان والمكان بين حى الحسينية فى المنصورة وحى الزمالك فى القاهرة . . بين شارع كوهين رقم ٩ وشارع الأمير حسين رقم ٣٨ . بين نعمت هانم يكن والسيدة مريم البطاوى صاحبة البيت . . بين مدرسة المنصورة الثانوية وكلية آداب القاهرة . . بين الأستاذ مصطفى خالد مدرس الفلسفة وبين د . عبد الرحمن بدوى أستاذ أساتذة الفلسفة وبينهم جميعا والأستاذ العقاد . .

ولم أكن مجردا من الأسلحة . فقد كنت أول الثانوية العامة وأول مسابقة الفلسفة فى مصر وأعرف الانجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية وأحفظ القرآن الكريم ومئات من أبيات الشعر . .

ولكن الذى ظهر على جلدى فجأة لم يكن إلا نوعا من الخوف العصبى ـ هكذا قال الأطباء . . وكان أول يوم لى فى الجامعة وكنت أضع يدى فى جيوبى حتى لايرى زملائى هذا الغليان فى دمى والذى طفح على جلدى . .

ولم أكن فى حاجة إلى أن أتعلم لغة (الاسبرانتو) وهى اللغة التى تحاول اختصار كل اللغات . . فقد كان أمل الذين اخترعوها

أن يوحدوا بين الشعوب . . ولكن حاولت أن أتعلمها ، رغم أنه لا توجد عندى مشكلة من أى نوع فى التفاهم مع الناس . . ولا عندى سبب واحد يجعلنى أبحث عن موظف فى محل شيكوريل لكى أدرس عليه علم (الثيو صوفيا) ـ أى الحكمة الإلهية !!

ولا عندى أية رغبة من أى نوع فى أن أتعلم الشطرنج فى مقهى بالقرب من كباريه الكيت كات ـ وقد انهدم الكباريه وأصبح الآن مسجدا !

ولكنه هذا الشعور بعدم الأمان فى المدينة الكبيرة . . شعور عميق عند واحد من أبناء الريف تسلح علميا تسليحا جيدا . ولكن هذه الأسلحة لا تجعله قادرا على عبور الشارع واثقا من نفسه دون الخوف من أى سيارة عابرة . . ولذلك حاول أن يسلح نفسه بأسلحة غريبة وغير ضرورية . فلم يتسع وقته لكى يفكر . فقد هجمت عليه الجامعة والعلوم الكثيرة مرة واحدة .

وعندما جئت إلى القاهرة دخلت فى جامعتين فى وقت واحد . جامعة القاهرة فى الجيزة وجامعة الأستاذ العقاد فى مصر الجديدة!

(٣)

أنا أقول لك كيف أصبحت عضوا فى (جماعة الإخوان المسلمين) فى امبابة . أما أننى مسلم فلست فى حاجة إلى من يؤكد لى ذلك ، أو يعلمنى مبادئ دينى ولا كيف أؤديها . ولكن كان لى أصدقاء أعضاء فى هذه الجماعة . وكانت هناك مكتبة . وبسرعة اتجهت إلى المكتبة . وبسرعة اختارونى أمينا لها .

وكنا نجلس فى المكتبة والباب مغلق علينا ونتحدث ونتناقش . . لا شىء غريبا فى ذلك .

ومن حين إلى حين نذهب إلى سماع الشيخ حسن البنا فى المركز العام للاخوان . . وهو رجل لطيف رقيق وفيه أبوة غامرة . وأسلوبه سهل وله قدرة هائلة على الإقناع . . وذاكرته مغناطيسية فهو لايكاد يراك مرة حتى يعرف اسمك ويعرف ماذا تعمل .

وكلما رآك سألك عن حالك .. ويكون لذلك فعل السحر فى نفوسنا . . انتهى .

ولكن ترددى على مركز الجماعة ليلا أو بعض الليل ، لايحل مشاكلى .

فأنا أدرس الفلسفة . والفلسفة علومها كثيرة . وأريد أن أتفوق . وأن أكون الأول . لاشك ولا منافسة ولا تنازل عن ذلك انتهى .

فليس عندى متسع من الوقت لأى شىء آخر . . وكل محاولة من الإخوان لأن أقوم بنشر الدعوة فى أى مكان غير ممكنة . فليس

عندى وقت . وليس من أهدافى أن أكـون داعـيـة . ولا أن أكـون عضوا عاملا فى جماعة الإخوان المسلمين . فعندى هموم كثيرة . ولن يحلها أحـد سواى . . والطريق الوحـيـد هو المذاكـرة والتـفـرغ التام . هذه هى كل مشاكلى . وهذا هو الطريق . وهذا هو الهدف . ولا شىء يشغلنى عن ذلك !

أحـيانا كنت أتلقى أمرا هكذا : يذهب الأخ . . إلى مـسـجـد البراجيل ويلقى خطبة الجمعة والصلاة . وكنت أذهب . وبعد ذلك أفكر فى هذا الذى حـــدث . . وألاحظ اننى لـم أناقـش . هل اسعدنى أن أكون صغيرا أصعد المنبر واخطب . . وأسمع نفسى وأنا أتلو الآيات القرآنيـة وأسرف فى ذلك تأكـيـدا للناس أننى مـا أزال حـافظا للقـرآن الكريم رغم صغـر سنى . . ثم أردد أبياتا من الشـعـر الصـوفى من نظم والذى انتـهـز هذه الفـرصـة لكـى اترحـم عليـه والناس ورائى يقولون : أمين . .

ولم أذهب إلى أبعد من ذلك !

(٤)

وكان لى زملاء يغيبون كثيرا عن ندواتنا الصاخبة . . أو جلساتنا ونحن نناقش فى الدين وفى الفلسفة . . أما الفلسفة فكانت معلوماتى فيها أكثر من معلوماتى الدينية . . فأنا أعرف عشرات من أسماء الفلاسفة ونظرياتهم ولا أعرف نصف هذا العدد من الأئمة العلماء والصوفية . . وكان الحوار ينتهى عادة نهاية فلسفية . .

وكنا شبابا صغارا . . نمسك بأطراف قضايا أكبر منا وأعظم واعقد . . ولأن معلوماتنا قليلة وبسبب غرور الشباب ، كنا نتهجم على كل القضايا ويكون لنا رأى . . وكنا مسلمين ومسيحيين شيوعيين وشيعيين وملحدين وكانت لنا آراء غريبة عجيبة . . وكان من الصعب على جماعة الإخوان المسلمين فى امبابة أن يسكتوا على هذه الضوضاء التى يسمعون صداها حتى أثناء الصلاة التى كان أكثرنا يؤديها فى غير أوقاتها . .

أما معظم الإخوان المسلمين فكانوا أكثر انضباطا وأكثر إيجابية . . وكانوا يقومون بمهام دعائية لا نعرفها . . وكانوا يعودون منها مرهقين وفى ساعات متأخرة من الليل . . وعندهم حكايات وعندهم نوع من السعادة والرضا لم نعرفه نحن فى كل حياتنا . . هذه السعادة مصدرها أنهم قاموا بواجب نحو الإسلام . وأنهم ملتزمون بمبادئ الإخوان المسلمين فى الدعوة والصبر والاستمرار فى الدعوة فى سبيل الله . . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

والطريق من أوله لآخره نهايته الجنة . . سألت أحد زملائى من الإخوان : والمذاكرة ؟

فكان يجيب دائما وبمنتهى الراحة : الحمد لله . .

فأقول : الحمد لله طبعا . ولكن على ماذا ؟

فكان يجيب دائما : سوف يكون عندى متسع من الوقت لكى استدرك ما فات . والنجاح من عند الله . .

آمنت بالله . وكان ينجح . .

واسأل زميلا آخر وأقول : والعمل .

ويكون الرد : على الله . . فأنا قمت . بما هو واجب . والباقى على الله .

فأقول له : يجب أن يكون الباقى قليلا جدا . . فالإنسان يجب أن يعمل أولا وأخيرا لكى يساعدنى الله . . والله يساعد من يساعد نفسه . .

وكان يحنى رأسه . وكان ينجح . .

ولم أجده غريبا . ولا وجدنى عجيبا . فكل واحد حر فى الطريقة التى يعبر بها عن مدى إيمانه وحرصه على أن يكون مسلما نافعا . .

(٥)

قالوا لنا : اليوم سوف يخرج صديقنا وحبيبنا عباس . . من السجن . وذهبت مع والدته وأخته وخطيبته ومعنا والده المريض الذى أصر على أن يكون فى انتظاره . . ولم يشأ واحد منا أن يحلق ذقنه أو يسوى شعره . . كأننا قررنا أن نلقاه فى مثل حالته . .

وانفتح الباب وخرج أناس كثيرون . . ليس واحدا منهم . . ولم يجرؤ واحد منا أن ينظر إلى الآخر . . فقد تولانا الفزع من لقائه . . فهو شخص له رأى ، وهذا الرأى أدخله السجن . . والآن سوف يخرج . ولا أعرف كيف يرانا أو نراه . . أن شعورا بالخيانة يخيم حولنا . . كأننا نحن الذين تركناه وحده يعمل ويسقط فى أيدى البوليس ، وكان فى استطاعتنا أن نمنعه من ذلك وأن إهمالنا ولا مبالاتنا هى التى أدخلته السجن . . فنحن إذن السبب . . ولكن لم يكد يظهر حتى أحسسنا جميعا وفى لحظة واحدة أنه لا أحد خائنا . . فهو مشرق الوجه وسعيد وفخور بنفسه . وكأنه اختار ذلك ولم يتورط . . الصحة جيدة . الملابس نظيفة . . وقد حلق لحيته وسوى شعره وبالأحضان والقبلات . وكان يقول لنا : جرى إيه ؟ لماذا لم تحلقوا ذقونكم ؟ هل كنتم فى السجن ؟! هاها هاها . .

أما الذى دار بينه وبين خطيبته فكان لحظات . . ولم يصافحها . ولا التفت إليها عندما انصرفت وتوارت والدموع فى عينيها . . حتى أمه لم يذب فى أحضانها ولا سأل عن والده المريض . . ولا عن أخيه الذى توفى . . وإنما هو اتجه إلى واحد لم نكن نراه ، كان

جالسا فى تاكسى . . وأسرع إليه وسحب يده وقبلها . ورأينا شابا له لحية . . وقد كان زميلا له . . وبسرعة اختفى الاثنان .

ولا أستطيع أن أصف لك خيبة الأمل واليأس والقرف والهوان الذى تمرغنا فيه . .

ولم يطلع علينا النهار إلا بعد أن أيقنا أن صديقنا عباس قد تغير . . ولم يعد هو هو . . أصبح إنسانا آخر . . وعرفنا أنه لم يكمل دراسته الجامعية ، وإن كان قد ادعى ذلك . . ولكن لماذا ؟

فقد أصبح عضوا عاملا عنيفا . .

(٦)

قالوا لنا أن صديقنا الأخ عباس . . غرقان فى المشاكل . فهذه السيدة التى تقول أنها أمه . . هى خالته . . أمه ماتت وهو رضيع . وهذا الذى يقال أنه أبوه هو زوج خالته . . فليس له إخوة وكان زوج خالته هذا رجلا بخيلا شحيحا . وكان يضربه . وعندما كبر كان يدفعه إلى العمل فى البيوت . . وفى كل مرة يعود عباس إلى البيت يجدهم قد تناولوا عشاءهم وناموا . . وكانت ابنة خالته التى تصغره بخمس سنوات هى التى تخفى له الطعام تحت السرير . .

وهو يريد أن يتعلم . . ولابد أن يتعلم . وأن يعيش بعد ذلك وحده بعيدا عن عذاب الأسرة المزيفة . وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين . وكان يذاكر فى المسجد . فلم يكن مسموحا له أن يستهلك الكهرباء . ودبر له الإخوان عملا فى مقابل أجر متواضع . ولكن الأجر يجعله يتناول طعامه خارج البيت ويشترى الملابس والكتب . وكان يتقاضى مكافأة عن رحلاته خارج مدينة إمبابة . وأصبحت حالته المادية لا بأس بها . وأصبح راضيا عن حاله . والناس راضون عن أخلاقياته المهذبة الطيبة .

واتهمه زوج خالته بالسرقة . . سرقة قروش من جيبه ؟! ولم يفلح فى أن يبرئ نفسه ، وأن والدهم كثيرا ما اتهمهم جميعا . وأمهم أيضا !

وفى يوم قررنا فيما بيننا أن تجمع له مبلغا من المال هدية فى عيد ميلاده . ولم يكن صعبا عليه أن يفهم إنها مساعدة وليست

هدية . فقبلها . واختفى بعد ذلك . ولم نعد نراه إلا خارجا من السجن !

كان ذلك ونحن شباب . وسألناه فى يوم هادئ فى الريف : ولماذا الانضمام لجماعة الإخوان ؟

وكان جوابه : أنه أحس أنه لا وزن له . لا أحد يريده . ليس مهما بالنسبة لأحد . . لا أب ولا أم . . ولا مستقبل . وأنه ليس مذنبا . وإنما الدنيا عاقبته على جرائم لم يرتكبها . فليس هو الذى داس والده فى سيارة ولا قتل أمه بعد ولادته ولا جعل زوج خالته متوحشا . . ولا ملأ عيون الإخوان المسلمين بالإشفاق عليه . .

وبعملية حسابية بسيطة أحس أنه أقل من الناس . . أنه ناقص ذراعا وساقا ولسانا وقلبا . . وأنه لايستحق شيئا من ذلك !

قالوا له : افعل كذا !

فذهب وفعل . . لأنه يريد أن ينتقم من أى أحد !!

(٧)

حكاية صديقنا الأخ المسلم عباس حكاية نموذجية . . أنه شاب متحرر متمرد . يرفض النصيحة والأبوة والأخوة والأمومة . . لأنها تؤكد له أنه ضعيف ناقص مثير للشفقة ! ويفضل أن يكون وحشا فى قفص على أن يكون قطا سياميا فوق مخدة من حرير !

وعلى الرغم من أنه كان يرفض النصيحة ، ويحرص على أن يكون حر الرأى والقرار . فإنه اختار بنفسه أن ينزل عن حريته وقراره وإرادته وأن يسلمها طائعا لواحد آخر . . يتلقى منه الأوامر . . وبعض الأوامر سخيفة . ولكى يؤكد طاعته التامة ، فإنه ينفذها . ولا يتساءل . فليس من حقه . عليه الطاعة ، والآخرون لهم الأوامر . لماذا ؟ لم يسأل . ولا يصح . فالآخرون أعلم وأحكم !

وكان يجد إلى جواره دائما شابا من الأغنياء ، ينظر هو إلى أصابعه وملابسه وأسنانه وحذائه . . كل شىء يلمع . كل شىء نظيف مغسول . ما مشكلة هذا الغنى ابن الأكابر ؟ إنه هو الآخر ثائر على أهله . . لقد أعطوه كل شىء . ولم يعد من حقه أن يكون حرا ، ولا أن يكون مفكرا . . فكل شىء موجود دون أن يطلبه . . كل شىء عند أطراف أصابعه دون ثورة على أحد . . دون تفكير . . بل إن التفكير نوع من الترف . . وما حاجته إلى أن يقرأ أو يذاكر أو يكافح . . إن أهله قد جردوه من كل أسلحة الإنسان الشجاع الجرىء الثائر . . لقد كان يحسد الأخ عباس على البركان الذى فى داخله . .

لقد ساند الشيوعية بعض أصحاب الملايين من أمثال فريد ريش انجلز الذى كان ينفق على الفيلسوف (كارل ماركس) وعلى بناته . . وعرفنا فى مصر المليونير الشيوعى (هنرى كورييل) . . كما عرف التطرف الإسلامى المليونير السعودى (أسامة بن لادن) . . أنهم معذبون لأنهم يفتقدون أسباب العذاب الحقيقية . . إنهم يفرضون العذاب على أنفسهم . ويحسدون الذين ولدوا جائعين خائفين كارهين ثائرين . .

وليس عجيبا أن تجد شاعرا غنيا أعطاه الله مالم يعطه لكل الشعراء يصف نفسه بالشاعر المحروم . . وهو محروم من الحرمان ، كما أن المتطرفين الأغنياء محرومون من الفقر والثورة على الأغنياء؟!

(٨)

هناك أناس تدربوا طويلا وكثيرا على التقاط الضحايا السهلة من الشبان الوافدين من الريف . .

فالشاب يريد قضية يدافع عنها . والقضية جاهزة . يريد سببا للتعصب ، فيقدمون له الكاستات . يريد تنظير وتنظيم كراهيته للناس . يعطونه برنامجا للسخط انتظارا للحظة المناسبة . يريد أن يقرأ . لا داعى فإنهم يلقنونه . ليكن له بيت والزوجة جاهزة . والأجر . وأن ينتظر . هذا هو الشرط . فماداموا قد أعطوه وسلحوه فلا ينقصه إلا برنامج .

فمن الذى يعطى الأوامر ؟ واحد هناك . ليس من الضرورى أن يلتقى به . . والناس لم يروا الله - سبحانه وتعالى - ولا نحن رأينا الرسول - عليه الصلاة والسلام - . والله عرفوه بالعقل . والرسول عرفنا آثاره الكريمة وسنته الرفيعة . ونحن أحسن حالا من الذين رأوه . فنحن مؤمنون به دون أن نراه . وهم لأنهم رأوه وسمعوه كان إيمانهم أسهل . . إذن فهذا الشاب أعظم وأروع وأسرع فى دخول الجنة من كل الصحابة والأنصار ـ هكذا يقولون له .

ثم يوجهون له ١١٤ سؤالا ضروريا من بينها : هل تعجبك حال البلد ؟

ـ لا طبعا .

ـ هل يعجبك الكذب والتزوير والرذيلة فى كل مكان ؟

والجواب : لا .

- هل هذا ما أمرنا به الله ورسوله ؟ هل أنت فى حاجة إلى أن تحفظ القرآن الكريم وآلف حديث نبوى وكتب الفقه على المذاهب الأربعة لكى تتأكد من أن الناس جميعا كفرة . ثم من هو الأقوى نحن أو الدولة ؟ ومن الذى على حق نحن أو الدولة ؟ وما حكم الساكت عن الكفر ؟ والجواب : إنه كافر !

- ما جزاء الساكت عن الرذيلة والدعارة والخيانة وصناعة الأوثان ؟

- جهنم وبئس القرار . .

- وهل هذا هو طريقنا إلى الجنة ؟ لا طبعا . . إذن ؟

- الأمر لله يا أمير . .

- الحمد لله الذى هدانا وإياك . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . طريقتك التقوى ومثواك الجنة . . . بارك الله فيك . .

فما الخطأ فى كل ذلك ؟ أول خطأ هو أننا لسنا جميعا كفرة ، ثم أنه ليس المؤمن الوحيد . . بل أن إيمانه ضعيف جدا . .

(٩)

لم يكن لدينا متسع من الوقت ونحن شباب لكى نفكر فى كل شىء . . فى الكون والناس وفى أنفسنا وفى الطريق ونهايته ومصيرنا . . فألوف الصفحات من الكتب الدراسية تقف حائطا منيعا بيننا وبين أنفسنا . ثم هناك الخوف على شكل برق ورعد . . يضىء لنا طريق الشوك إلى مستقبلنا . ولا ننسى نحن أبناء الريف أننا نمشي ونقف ونجلس ونذاكر وحدنا . . وأننا صغار نزداد ضآلة فى المدن الكبيرة أمام العمارات وبين السيارات والمجلات التى تجعل الرذيلة أجمل ، والتى تشيد الغانيات والعشيقات اللاتى يفدن من الخارج ومعهن الحقائب أشكالا والوانا . .

فما الغلط ؟ غلط الشاب نفسه . فهو لا يفكر . يستسلم . لايناقش . فهو فريسة . والصقور والذئاب كثيرة . والوقت مناسب تماما لأن يكون ضحية وقد جربنا فى هذه الرحلة القلقة أنه من السهل علينا أن نكره وأن نحب . . وأن نتوهم وأن نحلم وأن نغلط .

ففى جو المستشفيات نجد المريض يحب الممرضة . . والمسافر بالطائرة يحب المضيفة . . والسكران فى الكباريه يركع عند اقدام الراقصة . إنه الاضطراب . . إنها الحالة غير العادية التى تجعلنا عاجزين عن الرؤية والرأى . وكذلك حال الشبان الصغار فى كل الدنيا . . ثم هناك غلطة أجهزة كثيرة فى الدولة . . وخاصة هؤلاء الذين يتشدقون بالقرآن والحديث ويغلظون حناجرهم وأعناقهم . . وقد سمعنا الكثيرين منهم فلا قالوا ولا حكموا ولا أفتوا ولا أقنعوا

أحدا . . وإنما ظلوا عاكفين علىٍ السيارات والولائم وبدلات السفر في مقاعدهم التى تلعنهم ليلاً ونهاراً !

لقد صدق الإرهابى التائب (عبد الباقى) عندما قال إنه لم يجد رجال الدعوة والارشاد . وإذا سمعهم فماذا قالوا ؟ لم يقولوا : وهذه غلطة الدولة التى حشدت للإرشاد والهداية من لا يساوى وزنه ترابا ! وهناك آخرون شغلوا أنفسهم بعذاب القبر !! ومن الذى يتعجل عذاب القبر وفى الحياة كل هذا العذاب ؟ ثم الذين يشرحون بالتفصيل تلك السعادة فى الجنة مع ٧٠٠ زوجة ؟! كل واحد له هذا العدد الهائل . ولا شيء من ذلك فى القرآن أو الأحاديث . ولكن فى عقول مثل هؤلاء المرضى الذين هم أقرب الناس إلى الميكروفونات وأبعدهم عن المستشفيات العقلية !

(١٠)

والحل ؟ لايوجد حل سريع حاسم . فى يوم ليلة . فلسنا أمام هجمة من الجراد أو الفئران أو دودة القطن .

ولا نحن أمام عدد من النشالين وقطاع الطرق . وإنما نحن أمام أناس غاضبين . وفى كل الدنيا أناس غاضبون . والمكان الوحيد الذى نعرفه وليس فيه غضب أو ضجة أو سخط هو الجنة . قال تعالى : «لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قليلا سلاما سلاما» .

وكذلك القبور . . وفى اللغة الألمانية يسمون المقابر : أرض السلام . . سوف يكون هناك غاضبون على كل شىء وعلى كل الناس . ولكنهم فى التاريخ قليلون . . وحين يتحول الغضب إلى تمرد أو ثورة ، فلا يمكن أن ننظر إلى الأقلام وقد تحولت إلى مسدسات تصيب الأبرياء ، ونحن نتعامل معه على أنه شىء تافه فهو أمر خطير . لأنه يهدد حياة الناس وأمنهم وسلامتهم الدولية . ولذلك فالخطر عام . والعلاج ليس سهلا وهو فى أيدى الجميع ، لأنه يتهدد الجميع . .

أما الجرائم العادية فسوف تبقى . وأول جريمة فى التاريخ كانت بين شقيقين . ولاتزال هذه هى حال الإنسان قاتلا لأخيه الإنسان . . فالأقربون أولى بالدم . وهناك عصابات ـ مافيا من كل لون ونوع وحجم فى أمريكا وكذلك فى أوروبا . . ولكن الذى يهمنا ويفزعنا أيضا هو ذلك القاتل الذى يمسك قنبلة فى يد ، وكتاب الله

فى اليد الأخرى . . أى الكتاب الكريم الذى جعله كتابا ملغوما ـ سبحان الله جلت قدرته وشرفت كلمته وسمت غايته . .

ونحن قد وقعنا فى غلطة كبيرة . أمام غلطات هؤلاء الشبان الساخطين ، فقد ألقت الدولة كل العبء على رجال الأمن وحدهم . وظلت الدولة كلها تتفرج عليهم . وكأن الأمر يعنى وزارة الداخلية ولايعنى أجهزة الدولة الأخرى . . أو يعنى رجال الدين ولايعنى رجال الاعلام والسياحة والاقتصاد والسياسة والجيش .

وكان من نتيجة ذلك أن أحس الساخطون الغاضبون أن بينهم وبين رجال الأمن ثأرا ـ وتحولت قضية الرأى الخاطئ إلى جرائم عادية ـ ظاهرها جرائم عادية وباطنها جرائم رأى فى الدين والسياسة والتربية والتعليم والإعلام والإعلان . .

(١١)

لابد أن يتدخل رجال الأمن لحماية الدولة . ومن غيرهم لا قانون لأن القانون معناه : الحق تحميه القوة - حق كل الناس أمام كل الناس ، ثم أن الدولة بقوتها تحمى الجميع من الجميع . .

نفرض أن هذه الجماعات الدينية قد هجمت على محلات الذهب وسرقتها ، أو سوبر ماركت ونقلت كل ما فيه وقتلت الحراس والعاملين فلا شك فى أنها جريمة . ورجال الأمن هم وحدهم الذين يتدخلون لوقف المذبحة وردع المجرمين لابد من ذلك . ولا خلاف بيننا . ولكن . . هذه جرائم من نوع خاص لأن القائمين بها لهم رأى . وهذا الرأى هو (الاستحلال) . . أى أنهم يحللون لأنفسهم السرقة والقتل . لماذا ؟ لأن المجتمع كافر . وهم مؤمنون . ولأنهم فى حرب وهذه غنائم حرب ؟!

وهناك رأى آخر يقول : إن المسلمين عندما كانوا فى مكة وكان الإسلام ضعيفا لم يكن مسموحا للمسلم أن يجاهر بدينه . . بل كان مضطرا أن يجاهر بكفره والاستخفاف بالدين والنيل من الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - . . لماذا ؟ لأنهم ضعاف فهم يتظاهرون بالكفر والعداوة للإسلام . . وهذه هى (التقية) - أى أن يتظاهر الإنسان بما ليس فيه لكى ينجو من الكفار بارتكاب المعاصىْ ما ظهر منها وما بطن . ولا لوم عليه !

وليس من الحكمة أن يجاهر الضعيف بدينه أمام الأغلبية الشرسة من أهل مكة . . بل المسلمون فى حالة كمون . . فى حالة

انتظار خفى . . وانتظروا . وجاءت الفرصة عندما هاجر الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة . وفى المدينة قوى شأن المسلمين وإذن الله لرسوله الكريم بأن يجاهر بالدعوة . فقد أصبح المسلمون أقوياء . وفتح الرسول مكة . وكان حديثه الشريف الصحيح : لا هجرة بعد الفتح !

أى لم يعد هناك سبب لأن يهاجر المسلمون من ديارهم فهم قوة كاسحة . . ولا سبب فى أن يتنكروا لدينهم ، لأنهم أصبحوا أقوياء لا يخافون أعداء الإسلام من الكفار من أهل مكة أو من غيرها من المدن والدول . .

وعلى ذلك فالذين يسرقون ويقتلون الآن ، هم فى مرحلة (الكمون) . . فى مرحلة (التقية) ، وليسوا لصوصا وإنما يتظاهرون بذلك . . هم الذين يقولون !!

وكان لابد أن يقال لهم ـ بالعقل والحسنى ـ أن هذا ليس من الإسلام . . فلا نحن كفرة ولاهم مؤمنون . والأسباب والحجج كثيرة من القرآن والسنة . .

(١٢)

فأين الخطأ الآن ؟

أنه فى ترديد كثير من الكلمات التى سحرت الشبان الذين لايتسع وقتهم للتفكير . . والذين بادروا الأبرياء بالرصاص . فردت عليهم الدولة بالرصاص . فقد انحدرت القضية إلى أدنى حالاتها : ولم تعد رأيا خاطئا فى مواجهة رأى صحيح ، وإنما هو ثأر بين المتطرفين وبين رجال الأمن . . . هم يلاحقون بعضهم البعض . . ويستريح الناس - استراحة زائفة - إلى أنها معركة بين الشرطة والمتطرفين - واحنا مالنا ؟! كأن رجال الشرطة قوات مرتزقة ، وكأن الأمن ليس هو أخطر أجهزة الدولة الساهرة على كيانها الحارسة لنا ليلاً ونهاراً - ولا يزالون هم الذين يتلقون الضربة الأولى والأخيرة !

وهذه المعانى من مثل : أننا كفرة وهم وحدهم المؤمنون . . . أن السرقات غنائم حرب . . وأن تعاطى المخدرات والخمور والزنا كلها على سبيل (التقية) وليس على سبيل المزاج . . . وأنها جميعا من مقتضيات الكاموفلاج الذى نلجأ إليه فى الحرب لكى نخفى أسلحتنا وأنفسنا وأهدافنا . . وأخطر هذه المفردات والمعتقدات أن يكون بينهم (أمير) معصوم من الخطأ !!

وأخطر علينا من كل ذلك : هؤلاء الذين يتصدون للوعظ والإرشاد والفتوى ؟ ما علمهم ما مؤهلاتهم كيف ظهروا . . كيف سمحنا لهم أن يفسدوا الدين باسم الدين . .

وأن يضاعفوا بجهلهم وغرورهم مصائب وكوارث الأبرياء فى

مصر . . وأن يكونوا سلاحا مرتدا مع أننا دفعنا بهم لكى يدافعوا عنا . . فإذا هم علينا وليسوا معنا . . . إن بعض الهيئات والأجهزة عندنا ترتعش ، ليس بسبب أنها ضعيفة ، وإنما هى العيون كليلة والأيدى ذليلة ، والعقول هزيلة . وهى كذلك لأن الصورة ليست واضحة . . ولا الطريق ولا الهدف . .

فبدلا من أن يكونوا معنا كانوا ضدنا ، وبدلا من أن يكونوا سلاحنا ، كانوا سلاحا لعدونا . . فالصديق جاهل والعدو عاقل ـ وليس كل الأصدقاء جهلة ، ولكن بعض الذين اخترناهم . . . وقليل من الأعداء عقلاء يخططون من بعيد ويبعثون بالملايين ويدرسون ويرصدون . . ويخترقون أجهزة الدولة معتمدين على الساخطين على الفساد ، والانحلال المستشرى فى الإدارة وفى العلاقات الاجتماعية ، والإطارات السياسية والارتباكات السكانية ، والبطالة الجامعية .

(١٣)

والحل ؟ من يحتوى المشكلة يجد الحل . من يعرف الأبعاد والأعماق هو وحده الذى يعرف المداخل والمخارج . ولايزال التشخيص صحيحا . أما إذا كان التشخيص تهريجا ، فقد أضفنا سوء الفهم واللامبالاة إلى بقية متاعبنا ومشاكلنا .

والطبيب لا يسأل المريض عن الدواء الذى يعجبه وإنما يفرضه عليه فرضا . . ولو سألنا طفلا مريضا ما الذى يحب من الحقن الكبسولات لاختار الآيس كريم أو البتزا . . وليس هذا علاجا ولا هذا طبا . ولا نحن جادون وإنما هجاصون !

أخيرا جدا بدأنا ننظر بالفعل إلى جوانب المشكلة . ولكن عيوبنا سوف تسبقنا أننا نزهق بسرعة . فلا نكاد نجد شيئا حتى نتركه بسرعة . أو حتى نبالغ فى الكلام عنه حتى يضيق الناس به . فإذا ظهر فيلم عن الإرهاب أو مسلسل أو مسرحية . . اسرفنا فى ذلك حتى ينقلب الناس أعداء لمسيرة الإرهاب ثم انصرفوا عنه . وبذلك نكون قد اهدرنا جهودنا . .

وإذا لم تظهر أغنيات مملة عن الارهاب : يا إرهاب . يا إرهاب . . بالروح بالدم نفديك يا مش عارف مين . . إلى آخر التهريج الذى اعتدناه عشرات السنين ، فسوف تبقى المأساة حية ساخنة . ويجب أن نجعلها كذلك بالدراسة والمناقشة والحوار . فليس سبب الرصاص الطائش والدماء الزكية هو فقط الفهم الخاطئ للدين ،

وإنما هناك مشاكل كثيرة فى كل دول العالم الثالث : زيادة السكان والبطالة والأمية والكساد وضياع الخطة والنظرية والقلق فى الشرق الأوسط . . ثم ذلك الإصرار الغريب العجيب على المفردات الهلامية ، والتى لم تعد لها معنى أو جدوى مثل : الصف العربى . . والوحدة العربية والتطابق النظرى والقومية العربية . .

فالحلول أمل . . والمشاكل جبل . . والطريق أمامنا . . وفى أدينا أن نجعله يسبقنا ، إلى السلام وأن نجعله يلتف حولنا خانقا لنا . . ومبررا جديدا للثورة على أنفسنا . . على ضعف أنفسنا أمام مثل هذه التحديات الخطرة التى لم نواجهها بعد بنظرية فى السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو بتصحيح للمفهومات الدينية الخاطئة !

(١٤)

نحن أكثر شعوب الدنيا لوما لأنفسنا . . فلا صوت يعلو عندنا على صوت الضمير . ولا شيء أكثر إيلاماً لنا من وخز الضمير . وبعملية حسابية بسيطة نجد أننا أمام أنفسنا لا نساوى وزننا ترابا !

كل ما فعلناه قديما وحديثا نهاجمه ونهدمه ونبهدل الذين حاولوا وندفن الذين فشلوا . ونبلغ السماء بالذين نجحوا لنعيد دفنهم أحياء . .

هات أعظم انتصاراتنا ، وسوف تجد من يقول لك : إن حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ هزيمة عسكرية . . وأن هزيمة سنة ١٩٦٧ انتصار سياسى ؟!

ولا مشروعًا واحداً فى الصناعة أو الزراعة إلا هو فاشل . ولا يوجد ناجح ليس غشاشا . ولا يوجد غنى واحد ليس لصاً . . ولا يوجد وزير لا يتقاضى رشوة ولا قاض ولا رجل شرطة ؟!

هناك عبارة صينية تقول : إن الجندى لص هارب ، واللص جندى تاب الله عليه . فكل الناس لصوص ، كانوا أو سوف يكونون ؟!

والمدن الصناعية خراب . والمشاريع الزراعية يباب والهواء تراب وهباب وذباب . . فإذا كنا جادين فى هذا النقد الذاتى ، فمعنى ذلك أننا نتمنى أن تتاح لنا فرص أفضل لكى نثبت أن المصريين أهمه . . وأن هناك نوعين من البشر : الإنسان المصرى والناس الذين يسكنون أمريكا وألمانيا واليابان . والإنسان المصرى له صفات ليست موجودة فى أى إنسان آخر . كيف ؟ نحن الذين نقول ؟

إذا كنا جادين حقا ، حكومة وشعبا ، ساسة ومفكرين ، أطباء واقتصاديين فأمامنا فرصة فريدة فى تاريخنا الحديث : أمامنا (المشروع القومى لتعمير سيناء) أروع ما قدمت لجان مجلس الشورى . (ملحوظة : إذا امتدحت مجلس الشورى فأنا لا أهاجم مجلس الشعب وإنما أنا أحيى هذه الهيئة . .) وهذه هى المناسبة إن أردنا أن نصلح ما أخطأنا فيه . . ولا أقول إذا أردنا أن نتوب عن أخطائنا . فلا أحد لايخطئ . ولكن فارق كبير بين الذين يخطئ وهو (محلك سر) . . والذى يتعثر وهو يجرى . . والذى لاتنفتح له المظلة وهو يهبط من الطائرة . .

نحن نقول فى الأمثال الشعبية أن المية تكذب الغطاس . . فأمامنا بحيرات وبحار ومحيطات من الآراء والأحلام والمشاريع ، ونحن عوامون وغطاسون وعلينا أن نثبت لأنفسنا ولغيرنا ذلك . . فعلى بركة الله . .

(١٥)

إن التقرير البديع الذى تقدمت به لجان مجلس الشورى بكامل علمائها وخبرائها وثيقة للمستقبل . فمن أين نبدأ نبدأ من حيث انتهينا في مديرية التحرير . . وهى المشروع الرائد فى تحويل اللون الأصفر إلى أخضر . . وقلنا فى ذلك : نفوت على الصحراء تخضر . . وقلنا : الأرض بتتكلم عربى . . ولما سألوا السادات عن أحسن رسم كاريكاتورى يجب أن يضعه فى كتاب عن حياته اختار لوحة ظهرت غلافا لمجلة أكتوبر . . وكان السادات يرتدى ملابس فلاح وقد وضع الفأس على كتفه . . . وكل أرض قد وطئها بقدمه تحولت إلى لون أخضر . . . والأثر الذى تركه على أرض مصر هو الحياة والخصوبة والتعمير . . والعمار النفسى والاجتماعى والاقتصادى والسلام القائم على الرفاهية لكل الفلاحين والعمال .

ومديرية التحرير كانت حلما طموحا . كلفنا الكثير جدا . وكانت التكلفة الباهظة دليلا على أننا اسرفنا على أنفسنا فى تحقيق أحلامنا . . حتى أننا جعلنا الفلاحين يرتدون ملابس أمريكا اللاتينية ويضعون البرنيطة الخوص (السومبريرو) فوق رؤوسهم ويجلسون على حافة البلكونة يلعبون بالجيتار فى انتظار الست (كايداهم) - أى الزوجة وأطفالها الصغار العائدين فى غاية الأناقة من الحقل أو بعد أن تكون وضعت الجرار فى الجراج . فليكن ! فالدنيا لم يحقق إنجازاتها العظمى الا الذين كانوا يحلمون . وماوتسى تونج له عبارة جميلة تقول : لا ثورة بغير قصائد

شعر . . أى بغير جمال وإبداع وموسيقى وأحلام . . وكانت أحلامنا وردية . . ومن أجل أحلامنا هذه حولنا التبر إلى تراب . . . إلى قليل من التراب الذى يلتهم البذور فلا تنبت والمياه فلا تظهر فليكن ! والمثل يقول : ما ضاع من مالك ما علمك . فقد ضاع المال الكثير وتعلمنا أكثر . . . وكانت لنا غلطة وهى أننا بدلا من أن نصلح فدانا بعد فدان ، حاولنا إصلاح ألف بعد ألف . . فلم تخضر فى ايدينا وتحت أقدامنا إلا المئات . . وغلطة فى سلوكنا نحن المصريين أن نبدأ كبارا ونتضاءل بعد ذلك . . . وكان الأصح أن نبدأ صغارا ناجحين ونتوسع بعد ذلك . ويحدثنا أستاذنا سقراط فيقول لنا أن رجلا مد يده إلى جيبه المملوء قمحا محاولا أن يعد حبات القمح فأعجزه ذلك . . فما كان . . منه ألا أن ملأ جيوبه الأخرى ليعد القمح معا ؟ فليكن ! المهم أننا حاولنا واخطأنا واستوعبنا الدرس جانبا من هذا الدرس ! ويجب مراعاة فروق التوقيت عند إعادة هذه التجارب القديمة فى سيناء الجديدة !

(١٦)

وعندنا تجربة المدن الجديدة ـ الله يصبحك بالخير يا كفراوى ! فهذه المدن الصناعية حلم الأجيال كلها . . فقد كان الهدف الأول أن نبعد عن القاهرة والعواصم الأخرى ـ مادام ليس فى استطاعتنا أن ننقل القاهرة بعيدا ـ كما فعلت البرازيل . وجاءت المدن الجديدة تحديا لكل ما تعودنا عليه . فأصلحنا معها وبها أخطاء تلقائية البناء وعشوائية السكن . فقامت البيوت والمصانع على الخرائط الألكترونية قبل أن تقف طوبة فوق طوبة على الأرض . . ورأينا الشوارع والمرافق الصغيرة . والنظام والنظافة . . والمصانع استوردناها من أوروبا وأمريكا . والأجهزة الحديثة قد فرضت النظام والانضباط على العامل المصرى ـ وكنا نذهب نتفرج على الدنيا الجديدة ، كيف قامت فى قلب الدنيا القديمة . . وكيف أن العامل المصرى ليس كعامل الفرعونى الجالس القرفصاء لأن الجلوس يكون أمام الشادوف والطنبور وعند الساقية . فالأجهزة الألكترونية تديرها عقول متعلمة متحضرة . وقدمنا لأنفسنا نموذجا للخطوة الأولى لتطوير الحياة المصرية الصناعية والزراعية . . وتغلبت الطبيعة المصرية علينا . . فالبيوت ضيقة . لماذا ؟ وأصحاب هذه البيوت إذا ارادوا إدخال الأثاث إدخلوه من البلكونة ـ شاهدت ذلك مع المهندس الكبير حسب الله الكفراوى ، وادهشنى أنه لم يندهش . . والبيوت ملتصقة بعضا ببعض ـ لماذا ؟ لا أعرف . .

إن أمير الشعراء شوقى عندما رأى قصر (أنس الوجود) فى النيل قال :

قف بهذى القصور فى اليم غرقى

ممسكا بعضها من الذعر بعضا

فلا تزال البيوت مذعورة مثل سكانها ، ولذلك التصقت البيوت وانحشر الناس فيها وفى شوارعها . ولم يذهب الناس إلى الحياة فى هذه المدن . . فمدينة السادات مثل السادات . كان لابد من اغتيالها . واغتلناها . فالناس لم يجدوا سببا للإقامة فى هذه المدينة . . فليسوا كتلا من الحجارة . . وإنما هم بشر فى حاجة إلى المدرسة والمستشفى والسوبر ماركت !

وحتى لايقال أننا قد جاملنا مدينة السادات ، فقد اغتلنا المدن الأخرى . . وهكذا صار الاغتيال نوعامن العدل العنيف !

ودخلت مدينة السادات التاريخ على أنها نموذج لما يجب ألا تكون عليه مدينة أخرى . ولذلك بقيت المدن الصناعية مدنا غير إنسانية . . أى تجمعات صناعية . . تجمعات مصطنعة . لأن التجمعات المصطنعة هى تجمعات العمال أو الجنود أو الكشافة . أنها تجمعات مؤقتة ولكنها ليست تجمعات إنسانية ! لأن أساس التجمع الإنسانى هو الأسرة . فالأسرة هى الوحدة الأساسية لأى شكل من أشكال الحياة الاجتماعية !

(١٧)

وأمامنا نموذج ثالث : القرى السياحية فى الغردقة وشرم الشيخ . أما القرى السياحية فهى أجل وأرفع وأنفع ما أبدع المهندس المصرى وصاحب رأس المال . ففيها كل ما يحلم به صاحب الفلوس وصاحب الذوق والسائح . ويكفى أن تتفرج على قرى الغردقة أقدم هذه القرى وأحدثها ، لتعرف ما الذى استطاعه القطاع الخاص الذى ينشد الجاذبية والنجاح والمكسب . ولتعرف كم أضعنا على أنفسنا وعلى بلادنا كل أمل فى النجاح عندما تمسكنا ببلاهة منقطعة النظير بالقطاع العام الذى تخلى عنه الذين اخترعوه فى روسيا والدول الشيوعية . . وكيف أننا كنا وسوف نبقى أضحوكة الشعوب ونكتة التاريخ عندما جعلنا الدولة تتاجر فى الفول والطعمية . . فقد كانت عندنا (مصلحة الفول والطعمية) أقصى إهانة لقيتها مصر من أبنائها !!

ويكفى أن تتذكر البداية الجريئة لقرية الجفتون ثم كيف تطورت القرى السياحية حتى وصلت إلى أقصى مداها فى (القرية السويسرية) . . . وبين القريتين أشكال والوان من القرى والفنادق فى الغردقة وفى شرم الشيخ . . فأصحاب هذه القرى هم تجار الهواء والصفاء والأوكسجين والصمت وزرقة الماء . . . ووجود عشرات الألوف من السياح على مدار السنة أكبر دليل على النجاح !

وهذه القرى السياحية هى أجمل وأكمل صورة لما يجب أن

تكون عليه القرى فى شواطئ الدنيا ـ ويجب ألا نواجه مثل هذه المشروعات بزيادة فى نسل الدكتور الرزاز . بل يجب أن نتعاون على وقف نمو الدكتور الرزاز الذى سيخرب مصر باسم الحب الشديد لها . والشاعر القديم عندما قال (ومن الحب ما قتل) كان يقصد الوزراء من طراز الرزاز !

ويجب أن نخفف القيود على حركة السائحين دخولا وخروجا فلسنا أسبانيا أو إيطاليا أو حتى قبرص ! . . لسنا بعد !

والمثل يقول : إن الإنسان ملك عندما يحلم ، شحاذ عندما يصحو والشاعر هو الملك الشحاذ ، والشاعر ـ الآن ـ هو ممدوح البلتاجى وزير السياحة ومن ورائه ألوف من الكورس الغنائى والاستعراضى من أصحاب القرى السياحية ومكاتب السياحة ، أما الذى يلقى على الناس مالا نهاية من الماء البارد حتى يفيقوا فهم أمثال الدكتور الرزاز !

(١٨)

أما قرى الساحل الشمالى . . فالخطأ الوحيد هو اسمها . فهى ليست قرى سياحية . وإنما هى قرى صيفية يملكها سكانها . وهى أشكال وألوان . وهى عرضة لبهدلة الإدارة . ولأنها طالت واستطالت بمئات الكيلو مترات ، فقد بدأت المشاكل . مشاكل السكن ومشاكل التقسيط . ومشاكل جليطة الحكومة فى إفساد الهدوء والذوق ـ طلبا لمزيد من الكسب . كأن المفروض هو : كيف ننكد على الناس . ونعاقبهم لأنهم استطاعوا أن يشتروا بمليارات الجنيهات ما سوف يعيشون فيه عشرة أيام أو عشرين من كل سنة . مع أن أى مواطن حر من حقه أن يفعل بفلوسه ما يشاء . ولكن القاعدة الغريبة الآن هى أن الدولة حرة فى أن تفعل بفلوس السكان ما تشاء . فما اسم هذا السلوك الحكومى ؟ اسمه الفرعنة . . فكل وزير فرعون إلى أن يثبت العكس . ولم يثبت العكس حتى الآن !

وسوف نرى العجب العجاب فى المصايف القروية أو القرى الصيفية . والهمس بدأ يتعالى وسوف يصير زعيقا ، والزعيق صخبا . والفائدة ؟ وحياتك ولا فائدة . وإذا لم يكن لك حائط تضرب دماغك فيه ، فلنتعاون جميعا فى بناء حائط مثل (حائط المبكى) ولنجلس معا ونمزق عيوننا وخدودنا من البكاء !

ولا أظن أن أحدا سوف يبنى مثل هذه القرى الصيفية أو الشتوية فى سيناء ـ هذا أن وجد أرضا ؟! وسوف نفاجأ جميعا بأن

أرض سيناء ، قد بيعت ووزعت بسرعة على أناس وشركات . .
وعلى هيئات سيادية سوف تبيعها بأعلى الأسعار !

والمطلوب منا أن نقرأ ونعد النظر فى الذى فعلناه بأنفسنا ولأنفسنا فى الساحل الشمالى ولانقع فى نفس (الأخطاء) ـ يمكنك وأنت آمن تماما أن تضع كلمة (فضائح) بدلا من كلمة أخطاء . لأن الخطأ يحتمل حسن النية . أما الفضيحة فهى الخطأ مضافا إليه الوقاحة والبجاحة واللى يعرف أبويا يروح يقول له . .
ونحن جميعا يتامى على موائد اللئام السمان !

هل هذا جديد هذا الذى أعيده وأزيده ؟ لا طبعا . فعندك كالذى عندى مئات الحكايات وألوف الشائعات . . والصحيح منها كثير جدا !

(١٩)

عندما أوفدني الرئيس السادات لكي أرى قرية (ياميت) ومعناها «البحر الصغير» ، فلأنه أراد أن يعرف ما الذى تمثله هذه القرية لبيجين ، الذى فاوضه وساومه على ثمنها . ولم يكن بيجين يفاوض على الثمن . وإنما كان يريد أن يهدئ من ثورة سكان المستوطنات الأخرى أيضا . فليست لها دلالة اقتصادية . وإنما مدلولها سياسى . ولما رفض السادات أن يدفع له تعويضا عن قرية بناها على أرض مصر ، حرثها بيجين (وبالمناسبة فقد نشر الأهرام) حديثا لى مع الرئيس السادات ، وجاء فى الحديث (احرثوا قرية ياميت) . . ووقع خطأ فى كلمة احرثوها فظهرت احرقوها . وأصيب بيجين بجنون من كلمة الحريق . وثار وهاجم السادات ومصر وكاتب هذه السطور . وكان لابد من التصحيح . وقام مساعدو بيجين بشرح إمكانية الخطأ فى الطباعة لتشابه كلمتى احرثوها واحرقوها) .

وذهبت أرى القرية قبل أن يحرثوها ـ بحرف الثاء . ولم يضحك السادات عندما قلت له : ذهبت ورأيت (ياميت أبو الكوم) . . فكان السادات ينظر إلى قرية (ميت أبو الكرم) كأنها أم القرى المصرية . . أو نموذج للقرية المصرية التى يخرج منها العظماء والنابهون فى رحلة تاريخية إلى العاصمة . .

أما قرية (يا ميت) فهى من بيوت صغيرة . والبيوت اتخذت حزاما دائريا حول حديقة صغيرة يتوسطها (سوبر ماركت) وعيادة

طبية . ولاتوجد ثلاجة فى أى بيت ـ رغم حرارة الجو . والسبب أن هناك ثلاجة مركزية فى السوبر ماركت . فلا حاجة إلى ثلاجة تشغل مكانا فى أية شقة ولا حاجة لاستهلاك الطاقة فى تشغيلها . ولذلك فالشقة مكونة من غرفتين . غرفة المعيشة وغرفة نوم . ولابد أن يكون هناك طفل واحد . وعدد الأطفال هو الذى يفرض مساحة وشكل الشقة .

ولا داعى لأن أحدثك عن عدد الأطباق والشوك والسكاكين فى مثل هذه الشقق الصغيرة . المهم أنها شقة صغيرة محندقة نظيفة وتفى بالغرض !

وهذه القرى مثل كل المستوطنات الصناعية والزراعية بقع لامعة فى صحارى جافة قاسية ! وليس أسهل من بنائها ولا أرخص من تكاليفها .

ويسهل تنفيذها فى سيناء . .

(٢٠)

ولابد من أن نفرق بين عدد من المصطلحات المستخدمة فى مثل هذه الظروف : الإيواء والتوطين والتسكين والتأهيل .

فالإيواء معناه أن توفر أى شىء مادى ليحمى أناسا من عوامل الطبيعية : الحرارة أو البرودة . . وليكن ذلك فى خيام . ونعرف ذلك عندما وقع عدوان على مدن القناة . . وعند الزلازل والسيول . فالايواء إجراء مؤقت حتى نتمكن من أن نجد مسكنا لهؤلاء الهاربين من الموت !

والاسكان هو أفضل من الايواء . ولكنه نوع من الايواء فى بيت بدلا من الخيام أو فى بيوت لاتفى بكل احتياجات الناس . فهى أفضل من النوم على الرصيف ويكون الاسكان لواحد ويكون لألف أيضا مثل معسكرات الجيش والكشافة وعمال التراحيل . . فهى تجمعات ذات هدف واحد . وهذه التجمعات مصطنعة . وليست طبيعية . فهى تجمعات سابقة التجهيز تختفى باختفاء الهدف من وجودها !

والتوطين يكون للذين هاجروا من مدن أخرى أو من بلاد أخرى وعادوا إلى بلادهم . فهذا التوطين نوع من (شتل) الإنسان . . أى اقتلاعه من بيته ووضعه وغرسه فى بيئة أخرى . . وقد يكون مؤقتا أيضا . وقد حدث ذلك فى كل حركات الهجرة من مدينة إلى مدينة أو من دولة إلى دولة من قارة إلى قارة . ولولا هذه الهجرات التاريخية ما تقدمت الإنسانية ولا عمرت الأرض ولا انتشرت

الحضارة حتى أصبحت الدنيا قرية صغيرة وأصبحت دولها الكبرى أحياء فى قرية واحدة هى كوكب الأرض . .

وأنت تتأكد من ذلك كل يوم . . انظر إلى ابنك الصغير وهو يلعب بأصابعه الدودية فى جهاز الرموت كونترول فتنتقل من قارة إلى قارة ومن الأرض إلى التحام سفينة الفضاء الأمريكية بسفينة الفضاء السوفيتية فى مدار حول الأرض . والطفل لايدرى ماذا فعل . . ولكننا ندرى أن دنيانا أصبحت عند أطراف أصابعنا . . وأننا جميعا نأوى ونسكن بعضنا إلى بعض . .

ونحن لانهدف إلى تهجير الناس من الصعيد إلى سيناء . . وليس من أهدافنا تفريغ الصعيد والدلتا من الموظفين والعمال . .

(٢١)

وبعـد ذلك وأهم من كل ذلك : التـأهيل . أى أن تعـيش مع أهلك . فالأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع الإنسانى . والأسرة هى قاعدة الصناعة والزراعة . وهى حضن الأمان للإنسانية فى طول التاريخ وعرضه . فالإنسان قد اختار هذا الشكل ولم يغيره . . فمن مليون سنة : كان الأب والأم والأطفال يتوارون فى الغابات أو فى الكهوف . والأب يمسك الطوب والحجارة يضرب بها الوحوش التى تهجم على أطفاله . لأن الحيوانات قد شمت رائحة الطفل وسمعت صوته وهو يبكى .

ولذلك اعتادت الأم أن تسد فم طفلها حتى لايبكى منذ مليون سنة . فكان الطفل لايبكى حتى لاتهتدى إليه الحيوانات . ولكن عندما عرفنا الأمان وراء الأبواب المغلقة والنوافذ المحكمة وأبعدنا الحيوانات راح الطفل يبكى - ونحن - وهو آمن تماما . .

وقد تطورت كل أدوات الحياة ، إلا الحياة العائلية . . فبعد أن كان الإنسان يأكل بيديه ويمزق بأسنانه : اخترعنا السكينة والشوكة والمعلقة . . وبدلا من استخدام الطوب والحجارة فى الدفاع عن النفس اخترعنا بنادق ومدافع وصواريخ .

ومن أجمل ما جاء فى الشعر العربى فى التفرقة بين الإيواء والتأهيل ما قالته زوجة الخليفة معاوية بن أبى سفيان واسمها ميسون فقد خطفها الخليفة من ابن عمها وتزوجها .

فقالت :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلى من قصر منيف

وكلب ينبح الطراق دونى ... أحب إلى من نقر الدفوف

وأكل كسيرة من كسر بيتى ... أحب إلى من أكل الرغيف

ولبس عباءة وتقر عينى ... أحب إلى من لبس الشفوف

فهى تفضل العباءة الخشنة مع الحبيب على الحرير مع الرجل الذى لاتحبه وفتفوتة خبز على الرغيف ، ونباح الكلاب أجمل من الطبل والزمر . . والخيمة التى تهزها الريح أحب إليها من قصر الخليفة . فقصر الخليفة «إيواء» لها . . وخيمة ابن عمها تأهيل لها . . وقصر الخليفة «مسكن» وخيمة ابن عمها «بيت» . . والفرق بين الاثنين وهو العمق الوجدانى وكرامة الإنسان !

(٢٢)

ونحن الآن نشهد (التأهيل الثالث) للإنسانية . . فالعلماء يقومون الآن ببناء مدن مدارية حول الأرض . . ويبنون كهوفا تحت الصحارى الأمريكية تمهيدا لسكنى الإنسان تحت سطح القمر . . وفى روسيا تجارب عديدة للحياة تحت الأرض وللأمريكان أيضا . . فنحن ـ إذن ـ نرى نوعين من التأهيلات : التأهيل المدارى حيث يعيش رواد الفضاء وزوجاتهم . . وبعد ذلك أولادهم . . ثم الإسكان تحت قشرة القمر فى كهوف مكيفة الهواء والماء والجاذبية والضوء . .

أما (التأهيل الثانى) فهو بعد أن دعا نوح – عليه السلام – على قومه فقال : (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا) .

فاستجاب الله لنوح فكان الطوفان الذى أغرق الأرض وما عليها . . إلا نوحا . . فقد نجا فى السفينة هو ومن آمن معه . ثم هبطت السفينة عند جبل أرارات فى أرمينيا . وبدأت الحياة من جديد على سطح الأرض . .

أما (التأهيل الأول) فهو عندما نزل أدم وحواء من الجنة إلى الأرض . وفى عصرنا الحديث نريد أن نجعل أصغر مساحة من الأرض أحسن مأوى ومسكن وبيت للإنسان . ففى شقتك الصغيرة كل أدوات الاتصال والمعلومات والطعام والشراب . . ففى

أمريكا تستطيع الزوجة وهى فى سيارتها فى طريقها إلى البيت أن تدير كل أجهزة الطعام والشراب وتفتح النوافذ وتدير أجهزة التكييف وتضيء البيت قبل وصولها بدقائق . .

كل ذلك وهى فى سيارتها . فأضيفت السيارة إلى أدوات البيت . . وعلى الرغم من أن الشقة ضيقة لكن العلم الحديث جعلها فى اتساع الكرة الأرضية . وجعل كل شىء عند أطراف أصابع أهل البيت وهم فى طريقهم إليه . .

والمعنى أننا الآن لم نعد نسكن شقة ولا بيتا وإنما نسكن الأرض كلها . . وأصبحنا نتساءل هل عندك فاكس . . أو عندك انترنت . . فكيف لا يكون عندك فتتصل بمركز المعلومات فى أمريكا وأوروبا وتعرف كيف يسير الباحثون والعلماء .

وكل هذا صار طبيعيا جدا . . نحن جميعا أهل . . أو كالأهل . . ونحن جميعا أبناء أسرة واحدة عالمية ، والمعلومات قد وجدت بيننا فلم يعد الإنسان منعزلا ولا قادرا على أن ينعزل أو يعتزل !

(٢٣)

وأمامنا التجربة الإندونيسية فى إيواء وتسكين وتأهيل المواطنين فى الجزر الخالية من السكان .

فإندونيسيا يبلغ عدد سكانها مائة وسبعين مليونا . مكدسة فى جزيرة جاوة . بينما توجد عندها أكثر من ١٣ ألف جزيرة مخلخلة السكان . فكان لا بد من التخفيف على الجزيرة العاصمة . فلجأت الحكومة إلى تهجير الناس بالقوة . فكانوا يعودون بعد ذلك إلى المدن التى أبعدوهم عنها مهما كانت نائية .

ووجدت الحكومة الحل الصحيح . فكانت تقوم بتهجير القرية كاملة . . أى نقل العائلات والأقارب والأصدقاء إلى جزيرة أخرى . . أى نقل البيئة الإنسانية والزراعية والصناعية إلى مكان آخر . وبذلك لايشعر المواطن أنهم اقتلعوه من كل علاقاته الإنسانية وفرضوا عليه علاقات وبيئة مغايرة . أى أن الحكومة قامت (بتأهيل) الناس . . أى نقل الأهالى كما هم إلى بيئة يتكيفون معها بسهولة . . وفى الوقت نفسه وفرت لهم كل ما يحتاجونه . فلايشعر المواطنون بأنهم غرباء على أرضهم وبين أهليهم . وقد نجحت هذه التجربة لأنها احترمت ما هو ضرورى للإنسان : أن يعيش فى أهل وبين أهله ولأهله . . لا غريبا فى بلاده . . وليس هاربا ولا مطرودا . وإنما الحكومة احترمت آدميته ونقلت كل الناس من جزيرة إلى جزيرة . .

وقد عرف الفاتيكان بحملاته التبشيرية فى إندونيسيا . أن

الناس يمكن احتواؤهم إذا توافرت احتياجاتهم . . فكانت الجماعات التبشيرية تقيم السوق والمستشفى والمدرسة والكنيسة قبل أن يجىء الناس . فلا يكاد الناس يتسامعون بذلك حتى يرحلوا إليها مختارين . وهناك يلقون العمل والعلاج ومكانا يشكرون الله على ما أعطاهم . .

فلا شىء يجعل الإنسان يطفش من بلده ومن أهله ، الا أنه لايجد ما هو ضرورى . ولذلك هاجر الناس من بلادهم إلى بلاد أخرى . . ولكن إذا استطاعت بلادهم أن توفر لهم كل ما يحتاجونه ، فهم لن يهاجروا . . ولن يهجروا المدن الجديدة والمدن التى سوف تقام فى سيناء . . ونرجو الله ألا تكون بها أخطاء المدن القديمة التى فى الدلتا وعلى أطرافها . .

وإن كان التاريخ قد علمنا : أننا لانتعلم من التاريخ !

شمبانيا السلام !

(١)

أمامنا اتفاق قد ارتضاه الطرفان الفلسطيني والإسرائيلى بضمان الرؤساء مبارك وكلينتون ويلتسين . المهم أن أرضا قد استردها الفلسطينيون . وأنهم منذ اليوم سوف يحملون أعباء الحكم على أرضهم الضيقة ويواجهون مشاكل الإدارة والأمن والصحة وألا تتطاير الأحجار عبر الحدود .

لقد كانت هناك مئات الصعوبات . ولكن الصعوبات الأكبر سوف تجيء فى حينها ـ كما حدث فى أول لحظة بعد الاتفاق وسوف تجيء بعد ملايين اللحظات . . فالجهاد الأكبر هو الذى بدأ ، أما الجهاد الأصغر منذ كانت المناقشات والخلافات حول الكلمات ومساحات من الأرض ومساحات من السيادة . والفلسطينيون الآن يواجهون أنفسهم . . يواجهون أبناء غزة الذين لم يعرفوا إلا الظلم والهوان .

أما اليوم وأحلامهم ذهبية وآمالهم وردية ويطلبون تعويضا سخيا من هذه المليارات التى يسمعون عنها تتدفق من أوروبا وأمريكا .

وسوف تكون هناك مشاكل كثيرة وعقد وأزمات فليكن ! فكلها إرهاصات لولادة جديدة . وكل ميلاد صعب . والمثل الإغريقى

يقول :

اعطنى مكانا خارج الأرض وأنا أحرك لك الأرض . . وبعملية حسابية بسيطة تأكدت لدى علماء الفلك أنه لكى تحرك الأرض يجب أن تقف فى كوكب يبعد عن الأرض ألوف ملايين الكيلو مترات . ولكن الشعب الفلسطينى فى قلب إسرائيل .

فليس بعيدا .

وهو قادر بالصبر والعزيمة والحكمة على أن يحقق ما يقدر عليه ولن يكون ذلك سهلا .

فالفلسطينيون لايزالون مختلفين . وقد بادر بعضهم بالرفض . فليكن !

فقد حدث لمصر ذلك . . حين رفضنا الفلسطينيون والدول العربية وقاطعونا واتهمونا وظلمونا . . وفى النهاية لم يجدوا وسيلة للسلام إلا ما رآه السادات . . فمن الأعراف الدولية فى أعقاب الحروب هذا الجلوس معا والاتفاق على الحدود معا والاتفاق على الحدود والتعويضات والأسرى . .

وتوقيع الأمس أكبر دليل على نجاحنا وبعد نظرنا وواقعيتنا . . والتاريخ يا أشقاء كأس مريرة تدور . . وقد بدأ الشعب الفلسطينى يتجرع (شمبانيا) السلام حتى السيادة على أرضه ـ فألف مبروك . .

(٢)

ما الذى سوف يحدث فى الشرق الأوسط فى العالم بعد اتفاقية السلام بين فلسطين وإسرائيل ؟ ليس جديد . . فقد كانت هناك دائما دولة تفرض أحلامها الوطنية على الشعوب . وترى أنه لا سلام إلا إذا سار العالم كله وراءها .

فى القرن السابع عشر كانت فرنسا على أيام الكردينال ريشليون تفرض نموذجا للحياة السياسية والعلاقات بين الشعوب .

وفى القرن الثامن عشر كانت بريطانيا هى التى تسيطر بفكرها . وكانت سياستها هى توازن القوى فى أوروبا وفى غيرها .

وفى القرن التاسع عشر قامت النمسا بفلسفة مترنيخ تعيد بناء أوروبا . . وفى نفس الوقت كان المستشار الألمانى بسمارك يحطم كل ذلك .

أما فى القرن العشرين فأمريكا وحدها هى التى تعيد صياغة كل شىء على مزاجها وبفلوسها وذوقها وأسلوبها فى الحياة . وترى أن العالم كله يجب أن يفعل ما تريد . وأن السلام لن يتحقق إلا إذا سارت الشعوب وراءها . وهى فى نفس الوقت تتردد كثيرا فى أن تتدخل بقوتها لحل النزاعات فى أى مكان فى العالم . .

وفى (النظام الجديد) للعالم لن تسمح أمريكا بأن يستخدم العرب بترولهم ضد أوروبا فيفرضوا عليها الزمهرير والظلام فى ليالى الشتاء . ولذلك ساعدت أمريكا صدام حسين بالسلاح من أوروبا وأمريكا اللاتينية وأعطته القروض والتأييد المطلق .

واستدرجته إلى الهجوم على الكويت والسعودية حين بعثت بسفيرتها الضحية إيريل جلاسبى وقالت له : الطريق مفتوح إلى الكويت أما السعودية فلا . . وكان ما كان .

وقد دفعت دول الخليج مئات المليارات فى هذه الحرب والتعويض عن خسائرها . واستدانت دول البترول واستقر الأسطول الأمريكى فى الخليج واستقر صدام حسين فى مواجهة حافظ الأسد ورافسنجانى . ودخل الخوف واستقر القلق فى الخليج . وسوف تحرك أمريكا الأقليات الدينية والعرقية فى كل المنطقة حتى تتفكك كل الكتل تماما مثل الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا . .

وليس السلام الفلسطينى الإسرائيلى السورى اللبنانى إلا البداية !

لا نضيع الوقت !

تناقشت مع عدد كبير من المسئولين فى البحرين . الدولة صغيرة نظيفة هادئة . وفيها كثيرون مثقفون ومفكرون . وأشهد أننى استمتعت بساعات من الحوار . مع ثلاثة من الوزراء هم : يوسف الشبراوى وزير التنمية وهو رجل يقرأ فى الأدب والفن والتاريخ . . وقد تخصص فى البحث عن نشأة الكون وعلوم الفضاء وهو على دراية سياسية بعيدة المدى . . وكذلك وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء محمد المطوع . وقد نصحنى إبراهيم نافع أن أحرص على لقائه ، فهو واسع الأفق وهو محب لمصر ـ وللأمانة فكل الذين لقيتهم يحبون مصر ، ويرون أنه لا سلام إلا بها ، والرخاء بها . . وأن أمان الشرق الأوسط من أمان مصر . . ومحمد المطوع على علم عريض بشئون السياسة فى العالم العربى . والحديث معه يؤكد أن فى البحرين رجالا مستواهم رفيع من العالم والثقافة .

أما وزير الخارجية محمد مبارك آل خليفة فلديه أحدث ما أصدرت مطابع أمريكا وبريطانيا من كتب سياسية ، وهو على علم عميق بها ودراية واضحة بكل ما له علاقة بالشرق الأوسط .

وتناقشنا فيما سوف يحدث فى هذه المنطقة ـ الشرق الأوسط . ولم نختلف فى أن العرب يريدون السلام . ويريدون الحياة الآمنة .

ومن الممكن أن يتعلموا أحسن وأن يفهموا أعمق وأن يعيشوا أفضل . ولكن يجب أن نتحرك بسرعة . فالدنيا تجرى . والذى لايتقدم يتأخر . . والصراع الإبداعى بين أمريكا واليابان والصين على أشده . . وسوف تتقدم الشعوب الصفراء وتسيطر على القرن الحادى والعشرين . . ونابليون هو الذى قال : ويل للعالم إذا صحا التنين الأصفر . . وقد صحا التنين الأصفر فى اليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وهونج كونج وتايوان وتايلاند والملايو وإندونيسيا . . ثم الصين العملاق الجبار الذى يضم ١٢٠٠ مليون نسمة من العاملين بلا ملل ولا أجازة أسبوعية أو سنوية . .

وفيلسوف الحضارة الألمانى اشبنجلر قال لنا : الصين هى المستقبل . وذوقها وأدبها وأسلوبها فى الحياة هى الصورة التى سيكون عليها القرن الحادى والعشرون !

ويجب ألا نضيع وقتا . يجب أن نتعلم كيف نعمل أطول وأعمق وأجمل !

أفكار كثيرة !

سمعت هذه القصة من مستثمر مصرى ذهب إلى اليونان بحثا عن شقة يقيم فيها استديو تليفزيونى سينمائى . روى هذه الرغبة لسائق التاكسى الذى ولد فى الاسكندرية . فقال له السائق : إن وزير السياحة صديقى وسوف أحدثه عن رغبتك .

وفى الصباح وجد وزير السياحة فى انتظاره . قال له : ماذا تريد؟ أننى استطيع أن أبيع لك إحدى الجزر ؟

واندهش المستثمر المصرى فقال له الوزير اليونانى : لماذا الدهشة؟ هذه الجزيرة سوف تبقى على الخريطة اليونانية . . إن أنت كسبت الملايين فقد أنفقت مثلها فى بلادنا وإن أنت خسرت فقد أنفقت الملايين وبقيت الجزيرة على الخريطة !

وسمعت هذه الحكاية من السيد سالم السيابى رئيس مجلس إدارة طيران الخليج قال لى : إنه نصح صديقا له أن يذهب إلى سلطنة عمان ويزرع ما يشاء من ملايين أشجار جوز الهند . ويقوم بتصنيعها على النحو الذى يجعله يكسب الملايين . . فيجعلها مسحوقاً ويجعلها دهونا للتجميل . هو حر تماما .

ووعده صديقه بأن يفكر فى الأمر . فذهب إلى الملايو ليرى كيف يقومون بتصنيع جوز الهند . وعاد ليقول له : إن الأمر فى

غاية الصعوبة . وأنه سيكون عاجزا تماما عن عمل شيء أو حتى منافسة الملايو فى تصنيع جوز الهند .

أما السبب فهو أنهم فى الملايو قد استعانوا بمئات القرود المدربة على تسلق أشجار جوز الهند الناعمة السيقان . . ثم دربوا القرود على إسقاط ثمار جوز الهند بسرعة هائلة . ودربوا قرودا أخرى على وضعها فى الصناديق . . ثم تفريغها فى اللوريات .

ووجدوا أنه من الصعب عليه جدا أن يدرب الإنسان على هذه البراعة الفذة للقرود . ولذلك راح يفكر فى مشروع آخر .

ثم سمعت عن مليونير عربى يحتكر قطعة صغيرة من سيارة أو من تليفزيون أو من ثلاجة . قطعة واحدة وليس كل الجهاز . . وأنه استطاع أن يحتكر خمسين قطعة من ألمانيا واليابان والصين ؟!

هناك أفكار كثيرة لكل من يريد أن يعمل وأن يكسب وأن يتفوق !

نظافة زمـــان !

تفرجت على فيلم مصرى لا أعرف اسمه بطولة أحمد مظهر وشادية وعمر الشريف .

أحمد مظهر سائق قطار وكذلك عمر الشريف . وشادية زوجة أحمد مظهر الرجل الغليظ الخشن ، بينما عمر الشريف هو الشاب الرقيق . وشادية هى الزوجة الغلبانة المظلومة ليس هذا هو الذى شغلنى . . فهذه القصة قد أثيرت فى عشرات الأفلام .

أما الذى شغلنى وأدهشنى وأحزننى أيضا ـ وأنا أنظر إلى شوارع البحرين فأجدها نظيفة هادئة ـ فهى هذه النظافة فى بيت العامل المصرى ـ أحمد مظهر . ملابسه نظيفة ومرتبة فى الدولاب . والبيت نظيف . . كل شىء فى البيت نظيف ومنظم . وشادية ملابسها بسيطة ونظيفة . وعندما جلس عمر الشريف مع شادية كان لايلقى بقشر الترمس فى الشارع . . وإنما يحتفظ به فى يده . لكى يلقيه فى صندوق الزبالة بعد ذلك .

أما بيت عمر الشريف فهو أكثر نظاما ونظافة .

وهم يأكلون على السفرة وليس على الأرض . وغرفة نوم أحمد مظهر جميلة أنيقة بسيطة . . وكذلك غرفة نوم عمر الشريف . . والفيلم قديم من عشرات السنين ، قبل أن تتسخ مصر . . شوارع وبيوتا وملابس ومعاملات وألفاظا ونفوسا وجيوبا !

أمـا الآن فـلابد ـ ولا أعـرف لماذا لا بد ـ أن يجلس الناس على الأرض ويأكلون ويمسحون فى ملابسهم . . أما منظرهم وهم يأكلون فهو يبعث على القرف . . شكل الطعام وطريقة تناوله وطحنه بين الأسنان . . ثم من الضـروري ـ لا أعـرف لماذا أن يتكرع وبصـوت قـبيح . . فـهل هذه هى الواقـعيـة ؟ إن فـيلم أحـمـد مظهر وشـادية واقـعى أيضا ولكن لا بد أن تكون هناك رسـالة : أن يكون الإنسان نظيفا مهما كان فقيرا .

وأن يعتاد الناس على النظافة فى كل شىء .

أمـا الألفـاظ فـى أفـلامنا ومـسـارحنا فـهى غلظة خشنة بذيئـة فظيعة . .

وانتقلت هذه الألفاظ والتعبيرات المنفرة إلى كل المشاهدين . . ولم يعد أحد يخجل من الكلمات النابية أو الكلمات القبيحة . .

حتى اللغة أصبحت مثل الشوارع والبيوت : قـذرة بشعة ما الذى حدث؟ لا شىء أكثر من أن القذارة أصبحت طبيعة اعتدنا عليها ونندهش ألا نجدها . . شىء عجيب هل كانت البيوت فى مصر يوما ما ، بهذه النظافة . . وكان العامل بهذه النظافة والأناقة والذوق والأدب ؟

الجواب : نعم ! نعم !

أريدها خالية!

لو كان الأمر بيدى لجعلت الغرفة التى اجلس فيها والتى أكتب فيها والتى أنام فيها خالية من كل شىء إلا المقعد أو المكتب أو السرير . . خالية تماما . فهذا الفراغ فى المكان يعطينى الراحة . . وهذا الجدار الخالى من الصور جميل . . وهذه الغرفة الخالية من كل شىء إلا الضرورى جدا مريحة للأعصاب . . عندما رأيت بيت الكاتب السويسرى ديرنمات أدهشنى أنه عبارة عن فيلتين صغيرتين . واحدة ليقرأ ويكتب فيها . . والثانية للأسرة . وادهشنى أكثر أن أجد غرفة المكتب عبارة عن ترابيزة كبيرة وأمامها نافذة زجاجية كبيرة جدا تطل على الجبل . هذا كل ما فى الغرفة . . وعندما زرت بيت الأديب الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا بكوبا وجدت غرفته منضدة كبيرة . وعلى المنضدة عشرات الأقلام الرصاص التى يستعملها . . وعلى أرض الغرفة عشرات الأحذية التى يرتديها أثناء الكتابة . . فهو من حين إلى حين يترك المكتب ويروح يضع قدميه فى هذه الأحذية . . أنه يحاول أن ينشغل عن متابعة الكتابة بأى شىء . . ولم تعجبنى غرفته . ولم تعجبنى غرفة أستاذنا العقاد أيضا ، فعلى أرضها أحذية كثيرة ، وفى مواجهته عندما يفتح عينيه لوحة رسمها صلاح طاهر للذباب وقد تكاثر على بطرمان عسل نحل ، قرفا من أن محبوبة الأستاذ العقاد

قد تكاثر عليها الذباب ، ولم يفلح الذباب أن يجعله ينسى المحبوبة!
ورأيت البيت الذى يسكنه أستاذنا الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر فى قلب الغابة السوداء . . الغابة رائعة الجمال والجلال . . والطريق العالمى السامى إلى فيلا الفيلسوف لايفسده إلا الأحجار البيضاء . أنها تحدد الطريق إليه . . مع أنك سوف تهتدى إلى بيت الفيلسوف فليس هناك سواه . . أما البيت فليس هناك سواه . . أما البيت نفسه وكل ما فيه فهو من اختيار العروس فقد تزوج الفيلسوف فليس هناك سواه . . أما البيت نفسه وكل ما فيه فهو من اختيار العروس فقد تزوج الفيلسوف أخيرا ومتأخرا جدا . . أما مكتبه فهو الذى يعجبنى . . المكتب تحت النافذة المفتوحة على الغابة . . والضوء يغمرجانبا من الغرفة التى لاترى فيها إلا المكتب وإلا الفيلسوف . . لا شىء فى الغرفة . . لا كتب ولا ورق . . أنه يجلس هنا يفكر ويتأمل ويذهب إلى مكان آخر يكتب ولايرى ما حوله ولا من حوله . . إن الفراغ . . إن الفضاء هو الجمال . ولكن هناك أناسا كثيرين لايطيقون أن يروا المكان خاليا من الكراكيب أو جدارا خاليا من الصور . . أو مساحة من الأرض خالية من الزبالة !

الزهــور الزهور !

هاجمت كثيرا الإعلانات التى نضعها على شاطئ النيل لأنها تفسد المنظر . . أى إذا نظر أحد إلى النيل من الشارع أو من السيارة أو من النافذة . وكذلك الأندية التى تتزاحم على شاطئ النيل فى الجيزة كلها تفقأ عيون الذين ينظرون إلى النيل . .

واكتشفت أننى أؤذن فى مالطة ، حيث لايوجد مسلمون ، أو حيث يوجد مسلمون ولكنهم لا يريدون أن يصلوا . فلاحظت أنه لا أحد ينظر إلى النيل وفى النظر إليه أية متعة ، ولاحظت أن هؤلاء الناس من المثقفين أى أصحاب الذوق المهذب المتعلم المدرب على إدراك الجمال فى كل شىء .

أحد الأصدقاء قال لى : أنت بتتكلم على إيه ؟ وواحد قال : من الذى فرغ من الأكل والشرب والعمل وعنده وقت لينظر إلى هذا الذى نسميه النيل ؟ وواحد قال : لو نظر واحد إلى النيل فسوف تنكسر رقبته لأن النظر إلى النيل يشغله عن المطبات الموجودة فى الشوارع !

ومعنى ذلك أنه لا أحد ينظر إلى النيل . ولايهمه إن كان النيل (نجاشى) كما يقول عبد الوهاب أو أن النيل اصفراوى عليل وأنه مليان بالمبيدات الحشرية القاتلة للإنسان والحيوان . .

أى لا داعى للكلام عن النيل وجمال النيل . لأن أحدا لايدرك

ذلك ولا يهمه . وأن الكلام عن الإعلانات والأندية والعوامات والجثث الطافية على النهر لاتهم أحدا .

ولا أظن أن هذا هو حال كل الناس فهناك أناس يحبون الجمال ، جمال الليل والغروب والشروق والنجوم فى السماء والسحاب الرقيق . . وحتى السحاب الثقيل الذى يجعلهم يشعرون كأنهم فى أوروبا . وهؤلاء الناس قد أصابهم اليأس من إصلاح أى ذوق عام . .

ولا أظن هذا صحيحا . فلقد رأيت فى آسيا شعوبا فقيرة جدا . ولكن ملابسهم نظيفة وبيوتهم أيضا . ويضعون الزهور فى رؤوسهم . والذين شاهدوا السيول فى الفلبين وفى كوريا يجدون النساء رغم الكارثة ارتدين ملابس نظيفة ووضعن الورود فى شعورهن . . رغم الأسى والحزن والدموع فى عيون الجميع !

ونجد فى هولندا الزهور فى الشوارع تحتل الشوارع يمينا وشمالا . . وفى نفس الوقت نجد الزهور فى النوافذ وأبواب البيوت والدكاكين . إنه الذوق وحب الجمال وحب الحياة أيضا !

مرارة الأرز !

منذ خرجت علينا الممثلة الايطالية الجميلة سلفانا مانجانو فى فيلم (مرارة الأرز) بملابسها الممزقة لتكشف لنا جمال القوام .. ومنذ ظهرت صوفيا لورين فى فيلم (الفتاتان) ممزقة الملابس منكوشة الشعر . . ومنذ ظهرت جينا لولو بريجيدا تمضع اللبان وتهرش فى رأسها وفى أماكن مختلفة من جسمها فى فيلم (القبقاب) كانت بداية المدرسة الواقعية الجديدة فى السينما الإيطالية ثم انتهت هذه المدرسة من عشرات السنين . .

والسينما المصرية والمسلسلات لا يزال أبطالها حفاة عراة يهرشون بصورة مقرفة . سؤال إلى التليفزيون : هل الواقعية هى أن يأكل الناس بهذه الصورة البشعة فى المسلسلات . . هل الواقعية هى القذارة . . هل لو جلست أسرة حول الطبلية وكانت الطبلية نظيفة والأرض أيضا وغسل الناس أيديهم وأكلوا بالملاعق والشوك وكانت ملابسهم نظيفة ، هل هذا يعتبر مخالفا للواقع أو يعتبر خياليا . هل كل المصريين قذرون ؟ هل كل المصريين يأكلون ويمصمصون كما تفعل الكلاب ؟

اننى أرى هذه المشاهد مخلة بالآداب . . وإذا كانت الصور العارية ملط خارجة عن الآداب والذوق فإننى أرى هذه الصور خارجة عن الذوق وجارحة ومهينة لشعب مصر على كل

المستويات . . ثم إنها نماذج سيئة للأطفال . قال لى صديق إنه فوجئ بابنه الصغير يأكل ويمسح يديه فى ملابسه وملابس والديه . وكانت الدهشة بالغة عندما عرفوا أنه يقلد الممثلين !

لا أزال اذكر فيلما اشترك فيه عمر الشريف وشادية وأحمد مظهر . . وأحمد مظهر سائق قطار . بيته نظيف وهو أنيق وملابسه مرتبة فى الدولاب ومائدة الطعام بسيطة نظيفة . كل شىء مغسول . وهو فيلم واقعى جدا . . ورأيت عمر الشريف قد احتفظ بقشر اللب والترمس فى يده إلى أن القاه فى مكان مخصص للزبالة . . والفيلم قديم . وواقعى جدا . واقعية محترمة .

أن مثل هذه المشاهد التى نراها فى الريف المصرى وتحرص على إظهارها السينما والتليفزيون تجعل صورتنا قبيحة جدا أمام أنفسنا وتجعلها اقبح أمام الناس الذين يشاهدوننا الآن بالملايين عبر الأقمار الصناعية . . ثم إنها ليست ضرورية ولا منطقية . وإنما هى إفساد للذوق العام ، مع أن الواجب أن نرتفع به !



(١)

أكثر الكلمات شعبية كلمة : جميل . . رائع . . بديع . . يجنن . . والمعنى أننا أدركنا صفات استرحنا إليها . ونحب أن نراها . . ونحن نقول عن الطبيعة إنها جميلة وعن اللوحات الفنية والأعمال الأدبية ومخلوقات الله من الإنسان والحيوان . . ولأننا مختلفون فمعانى الجمال ومقاييسه مختلفة أيضا . .

وما كنا نراه جميلا ونحن صغار لم يعد كذلك عندما كبرنا .

والجمال نسبى : أهل الريف يرونه بشكل ، وأهل المدن يرونه بشكل آخر . . والجاهل والمتعلم والفنان والعالم ورجل الدين كل واحد منهم له مقاييس خاصة بالشىء الجميل أو المعنى الجميل . . والذى كنا نراه جميلا فى القرن الماضى أو الذى قبله ، لم يعد كذلك الآن . .

فإدراك الجمال غريزى . . ولكن الجمال وإدراكه والتعبير عنه يحتاج إلى فهم وإلى تدريب . . إلى أن نتعلم كيف يتذوق الجمال . أو إذا تذوقناه أن نفهم بالضبط ما هذا الذى أحسسنا به وأسعدنا ذلك .

واذكر وأنا تلميذ فى قسم الفلسفة أن كان يدرس لى وحدى د . منصور باشا فهمى وأقول وحدى لأن (علم الجمال) كان من علوم

طلبة الامتياز ، وكنت طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة . . وسألنى منصور باشا فهمى ما هو الفرق بين علم والجمال وعلم الحسن . . وهل كلمة الجمال والجميل لها علاقة بالجمل . وهل لهذا المعنى أى مدلول خاص عند العرب . ثم طلب منى أن أسأل استاذا فى اللغات السامية . وذهبت إلى د . فؤاد حسنين أعلم علماء اللغات الشرقية ، والذى صار صديقى وأستاذنا فى تعلم اللغات السامية . .

ولكن علم الجمال هو الاستاتيكا ـ وهى كلمة يونانية بمعنى الحس أو الاحساس بالحسن . فهى علم الحسن . وكانت مناقشات طويلة عريضة عن مفهوم الجمال والحسن . . ونظريات وفلسفات استغرقت من أعظم العقول مئات السنين . .

ثم جاء على الإنسان زمان أصبح الشىء القبيح هو الشىء الجميل . . وأصبح القبح والتشويه والقذارة هى الجمال . ويكفى أن تضع لوحات سريالية أمام اللوحات الكلاسيكية . وكلاهما جميل . كيف ؟ هذا منطق الزمان ، وكل زمان له منطق . وكل منطق له زمان !

هل نحن نتعلم الجمال ؟

نحن لانتعلم الإحساس بالجمال . . وإنما نحن نتعلم أن نفهم معنى الشىء الجميل . . أى أنه يمكن الارتفاع بالتذوق أو بالذوق . فالإحساس بالجمال غريزة . وكل الغرائز ليست إلا عادات مكتسبة . استقرت . ولم نعد نفكر فيها .

وهذا بالضبط ما نحتاج إليه كثيرا جدا فى البيت والمدرسة والتليفزيون والكتب . ينقصنا الذوق الرفيع حتى نكون أناسا متحضرين !

(٢)

هناك تعريفات لمعنى الشىء الجميل . . أو للجمال . . هناك رأى أن الفن قد ظهر من أجل أن نتذوق الجمال . أو إن لم يكن الفن للإحساس بالجمال والتعبير عنه فلا فن . .

الجمال هو السمو . .

قال أينشتين العبقرى الفيزيائى : لولا الرحمة والجمال والعدل فى هذه الدنيا ما كان لها معنى . . إننى أشد الناس احتقارا للتكالب على الفلوس والسلطة والابهة . . وقال أيضا : اينما أتوجه بعينى فى السماء لا أجد إلا البساطة والإ الجمال . . إلا الله !

فما معنى أن يطلب بعض الناس من أقاربهم أن يجعلوا قبورهم أنيقة . . وأن يجعلوها تحت الأشجار أو يطلبوا مقطوعات موسيقية فى جنازاتهم . . أو أن يزرعوا نوعا من الزهور فى مدافنهم . . وأن يرتدى الناس ملابس خاصة . ليس لذلك إلا معنى واحد هو أن هؤلاء الموتى عاشوا يتذوقون الجمال : وحريصين على أن يتركوا هذا المعنى عند الآخرين . . ومعناه أيضا أن الموت قبيح ولكن من الممكن أن يجعل أكثر الأشياء قبحا ، أكثرها جمالا . . ومعناه أن الشخص الذى أوصى بكل ذلك قبل أن يموت يتخيل نفسه حيا فى قبره يرى القمر والأشجار حوله وفوقه والناس قادمون إليه . . يريد أن يتخيل كل ذلك جميلا قبل وبعد أن يموت والمعنى : إن الانسان يحب الجمال !

وفى عالم الحيوان نجد الصراع بين الذكور على إغراء الأنثى .

بالحيوية والشباب والجمال والعش الهادئ . . فنرى الذكور تنشر ريشها الجميل وتنفخه ونراها ترقص ونراها تكسب المعارك ونراها تبنى العش . وتحرص على أن يكون العش بيتا لا سكنا . فالسكن هو المكان الذى أعد ، بأى شكل ليأوى إليه الزوجان . أما البيت فهو السكن . وقد صار جميلا أنيقا وقد جمع له الذكور الريش الجميل والزهور والورود اليانعة . . ثم نشر فيه بعض البذور العطرية . .

وهذه الطيور تدخل فى عالم الحيوان ، ولكنها بالذوق والجمال ترقى إلى درجة الانسان الرفيع الحس والوجدان . .

رأيت فيلما لطائر أنثى استدرجها الذكر إلى العش وراح الذكر يغنى ويرقص فرحا بالعروس . ولكنها بسرعة خرجت وطارت بعيدا فالعش لم يعجبها . . وحاول الذكر استرضاءها . ولكنها أصرت . فترك العش وراح يبنى عشا آخر . . وبعد أيام حقق الذكر ما وعد به ونحن لا تعرف بأى شىء وعد فعادت الأنثى إلى العش الذى رأته جميلا !

(٣)

ونحن عندما نطالب بأن تكون للقاهرة حدائق كبرى غير الحديقة الدولية وغير حديقتى الحيوان والأورمان وغير مئات المنتزهات الصغيرة فى القاهرة فلأن أسبابا كثيرة . أولها الجمال . . أن يحس الناس بالجمال وأن يحرصوا عليه فى الشارع وفى البيت وفى المدرسة وفى المكتب . . ثم إن حب الجمال يجعلنا نحب الحياة أيضا . أو العكس . فالذى يحب الأشجار لا يقتلها ولايقتل العصافير والقطط ولايعتدى على الإنسان . . وفى نفس الوقت يحرص على النظافة . . نظافة الأرض واليد والنفس أيضا .

ومن الممكن أن تطل على البحر ولا تراه . . وأن تنظر إلى الحديقة ولا تراها . . وألا ترفع رأسك لكى ترى السماء وقمرها وهلالها . ممكن . والسبب أنه ليس لديك إحساس بالجمال ، ولايهمك . ولايهزك .

وقد جاءنى خطاب من الزميل أمير طلب . كتب يقول : «لمسات الجمال فى مصر ماتت وشبعت موتا من عهد أجدادنا الفراعنة . . وأغنية القلب يعشق كل قبيح ، والقباحة دينى ومذهبى . . وأصبح زماننا الأغبر تحت سطوة اللحلوح وسيطرته حتى نام فى مصر قانون الشياكة والذوق العام نوما عميقا . وإن لم تصدقنى فأرجوك المرور على كوبرى أكتوبر أطول كبارى القارة الأفريقية حيث قام صرح إعلانى عملاق بأرض مركز شباب الجزيرة . . قام ليذبح الجمال الربانى ويخفى ما حبانا الله به من

نعمة الجمال بصورة استفزازية . . ولولا جهلى بالمسئول الذى فعل ذلك لقلت فيه ما قال مالك فى الخمر ضاربا عرض الحائط بالقانون ٩٣ لسنة ٩٥ ورحت فى ستين داهية لكن ـ والأيام بيننا ـ يظهر أنه كلام جرايد ومفيش فايدة . .» .

ومن الممكن أن يدير الناس ظهورهم للسماء والحقول والبحار ومن الممكن إذا رأوا الأشجار أن ينزعوا أغصانها وأوراقها . . ومن الممكن أن نجد شخصا فتح باب سيارته ونزل بسرعة وعبر الشارع إلى حيث توجد شجرة بها زهرة خطفها وقطعها وقبل أن يصل إلى سيارته كانت الزهرة أشلاء على الأرض . .

والسؤال : ماذا حدث ؟

والجواب : لا شيء . إنه إنسان مدمر مخرب قاتل للحياة فى كل صورها . إنه هو الذى يقتل العصافير وهو الذى يخربش بمسمار فى جيبه كل السيارات والجدران ويمزق المقعد فى السينما . .

إن أهله لم يعلموه كيف يتذوق ما هو جميل فى هذه الدنيا !

(٤)

قرأت (مذكرات مهندس صغير) . وهذا المهندس هو عبد الرءوف حمدى أبو سمرة . ليس صغيرا . أنه تخرج فى جامعات أمريكا . وعاش وأولاده هناك . ومن حين إلى حين يجىء إلى مصر ليرى أهله فى المنصورة . وهو غائب كثيرا عن مصر ، ولكن مصر لم تغب عنه فى لغته ودينه ومشاركاته الإنسانية ورسائله . والمذكرات باللغة الإنجليزية فى ٣٥٠ صفحة . . تبدأ بالمقارنات بين مصر وأمريكا . وهى مقارنات طريفة وذكية ، وواضح أن المسافة كبيرة جدا بين مصر وأمريكا فى كل شىء . وربما كان هذا هو الجانب المسلى والذى ليس عمليا فى مذكرات شاب من ريف الدقهلية سافر صغيرا إلى ريف كاليفورنيا .

أما الجانب الهام فهو ما الذى يمكن عمله فى مصر . ويرى أن الأمر ليس صعبا . وإنما المطلوب فقط أن تعطى للمهندس المعمارى حرية أكثر ووقتا أطول فى أن يضيف لمسة جمالية عند بناء كل عمارة أو مؤسسة حكومية ، ويرى د . عبد الرءوف أبو سمرة أن تجميل مداخل العمارات وواجهاتها ليس صعبا . وكذلك تصميم الشوارع والميادين . وبعبارة واحدة يقول : إن فن العمارة المصرية ممتاز . وأن العقول الهندسية فى أمريكا . طبعا فى أمريكا أسلوب مختلف مالية هائلة . ولكن لابد أن يكون للجمال والذوق نصيب فى كل شىء .

ويضرب أمثلة لما رأى فى مصر الجديدة وفى الزمالك . فقد

أدهشه أن يجد عمارات مقلوبة . . الواجهة كان يجب أن تكون فى الخلف ، والخلف مكان الواجهة . وسأل فقيل له إن أصحاب العمارة يريدون ذلك . . ولما سأل عن المداخل الضيقة جدا ، بلا سبب واضح قيل له إنها رغبة السيد رئيس المؤسسة . أما الشوارع والميادين الصغيرة والكبيرة فأكثر قبيح جدا .

ويضع فى كتابه نماذج مختلفة للفيلا التى يملكها . . وقد عرض عليه عدد من المهندسين أصدقائه نماذج كثيرة لها . وعرض هذه النماذج على أفراد أسرته ـ ثلاثة من أولاده مهندسون وزوجته أيضا . وكيف اختاروا ولماذا ؟ ثم كيف كانت النتيجة . النتيجة هى أن الجانب الجميل والذوق الرفيع هو الذى وفروه لهذا المسكن وسط حديقة جميلة . فما الذى يريد أن يقوله : إن الذوق يجب أن يسود كل شىء . ولا يحتاج إلى لحظات تفاهم بين المهندس وصاحب البيت . ويندهش كثيرا جدا كيف أننا غير قادرين على ذلك !

(٥)

فى لوس أنجيليس تناولت طعام الغداء فى مطعم كبير - وكل شىء فى هذه المدينة كبيرة وطويل وعريض ومرتفع وبوفرة . وفجأة ظهر صاحب المطعم يسأل : من أى البلاد أنتم؟ قلنا : من الشرق . فاقترب ليقول : من أى مكان فى الشرق؟ قلنا : من مصر قال : الحمد لله . هذا ما كنت أريد !

وأشار بيده أن ننزل معه لنتفرج على شىء كلفه الملايين ويريد أن يعرف رأينا فى ذلك . نزلنا ووجدنا فى الطابق الأرضى كهفا . . مغارة . . لا هى مظلمة ولا هى مضيئة . . ولكن الحراس والحارسات قد ارتدوا ملابس الرهبان . الملابس بيضاء . . الوجوه جادة حزينة . . أو جادة هادئة والنظرات سارحة . . وحركتهم ناعمة ناعسة . . ثم أشار الرجل إلى مغارة أخرى فى الأرض الضوء خافت . . المكان بارد . الموسيقى هامسة وفيها كورس سماوى . . مصدره من فوق ليملأ كل مكان . . وسرنا وراءه . . والتفت يسأل : ما رأيكم ؟ أليس صورة طبق الأصل من المغارة التى اختفى فيها سيدنا المسيح والسيدة العذراء فى القاهرة عندكم؟

وأحسست ضغطة على ذراعى من أحد زملائى المصريين . وعرفت أنه لم ير هذا المكان فى القاهرة . وسارعت فقلت : طبق الأصل . وأفضل . .

وحاولت أن اداعبه ، فوجدت أن هذا غير مناسب . فقد كان فى

نيتى أن أقول له : طبق الأصل فيما عدا مياه الفيضان وقليل من القذارة عند مدخل الكنيسة والشوارع المجاورة فى حى مصر القديمة . . والحقيقة أنها تحفة معمارية ضوئية موسيقية . فالرجل لم يترك شيئا لم يوفره فى هذا المكان الذى يتردد عليه كل من يجىء إلى هذا المطعم . . وعرفت أن الحراس يتغيرون كل ساعتين . . وطلب منى صاحب المطعم أن أصدقه القول ، لأنه لم يأت إلى مصر ولم ير المغارة الأصلية . ولما أكدت له أنها احسن نموذج للأصل أسعده ذلك . وقال لى : إننا هنا نتبارى فى عمل شىء أجمل وأروع مهما كلفنا ذلك . . ثم أنه قد كسب بسبب هذه المغارة الملايين !

وقال لى إنه سوف يبنى فى أحد مطاعمه الجديدة صورة طبق الأصل لمقبرة توت عنخ آمون . . وسوف يجعل المطعم من أوله لآخره فرعونى العمارة والملابس والموسيقى . وقال : إن لم يكن الطعام لذيذا ، فليكن الجو لذيذا جميلا !

(٦)

ربما لم تذهب إلى مكاتب الوزراء . معظمها ليس فيها أى ذوق من أى نوع ـ يمكن وزير الثقافة فقط هو الذى عنده تحف فنية فى السقف وعلى الجدران .

ولكن ليس كثيرا . وأنا على يقين أنه إذا صارت لوزارة الثقافة عمارة أو فيلا فسوف يجعلها متحفا . أما الوزراء ـ وحتى السيد رئيس الوزراء ـ فلهم مكاتب تبعث على الحزن ـ أى والله !

كل المكاتب لها جدران مغطاة بالخشب . والسؤال : لماذا ؟ نحن بلاد ليست فيها غابات فالأخشاب متوافرة عندنا وبملاليم . ولا بلادنا باردة جدا لدرجة أن تغطية الجدران بالأخشاب وسيلة للتدفئة . ولكنها مصنوعة من الخشب : الجدران وكل شىء فى المكتب .

ولابد أن تكون هناك ستائر كثيفة هذه الستائر تحجب الضوء المتدفق من الشارع . ثم أنها مضاءة بالنيون الأزرق الذى ثبت علميا أنه ضار بالصحة وبالعينين .

ولك أن تسأل : أليس من الممكن رفع الستائر ليدخل النور بتاع ربنا . . ولا مانع من ستائر رقيقة على الزجاج ؟ سؤالك لا معنى له . . لأنه لن يتغير شىء . فسوف تظل الغرفة مظلمة بسبب الستائر الثقيلة السخيفة ، ولابد أن تضاء بالنيون .

اذكر أننى منذ وقت طويل جلست فى غرفة الانتظار الخاصة برئيس الوزراء .

إنها لاتقل سخافة عن أية غرفة خشبية . إنها تابوت . ويجىء لك الجرسون فى غاية الأدب الفندقى ويطلب من سيادتك أن تشرب شيئا . وتطلب أى شىء . وبعد لحظات يجىء الجرسون فتلاحظ أن عددا من الزجاجات الفارغة قد أخفاها وراء أحد المقاعد ؟!

هل تعرف ماذا يحدث لو كانت هناك حديقة صغيرة أمام أو حول مكتب الوزير أو رئيس الوزراء ؟ بسرعة شديدة تظهر بعض المبانى من تحت الأرض لتقضى على الزهور والأعشاب . . كما حدث لمكتب رئيس الوزراء ظهر جهاز للمعلومات ، وتندهش لماذا فى هذا المكان وليس فى أى مكان آخر . . إن هذا الجهاز على صلة بالقطب الشمالى والجنوبى ، وكان من السهل أن يتصل برياسة الجمهورية والوزراء ، وأى وزير وأى مواطن ، أيا كان موقع هذا المبنى . ولكن ظهر فى هذا المكان ليقضى على اللمسة الجمالية البدائية حول مكتب رئيس الوزراء . وأن لم يكن هذا المبنى بالذات لظهر مبنى آخر . لماذا ؟ لأنه لابد أن نعمل شيئا قبيحا ليقضى على شىء جميل ونجد له الف عذر وعذر !

(٧)

من مدة طويلة ذهبت مع عدد من مهندسى شركة شل للقاء رئيس مجلس الإدارة فى لندن ـ وهو من أهم عشر شخصيات فى بريطانيا . تحدد الموعد فى الساعة السابعة و٢٠ دقيقة صباحا . ذهبنا فى السابعة و١٧ دقيقة . ساعات أيدينا تقول لك . وقفت سكرتيرة ما شاء الله على جمالها وروعتها وحديثها وانضباطها . وقالت والدنيا كلها تضحك فى عينيها وشفتيها : إنه باق من الزمن دقيقة واحدة . ثم طلبت منا أن يدفع كل واحد مقعده أمامه . وبعد نهاية اللقاء الذى سوف يستغرق سبع دقائق يجب أن ندفع المقاعد خارجين ، وأنها هى التى سوف تغلق الباب وراءنا .

أما مكتبها فالغرفة نظيفة جدا لا تعرف الفرق بين الأرض والزجاج والسقف . ولا بين عينيها والكريستال الأزرق الخفيف . ولا بين لون فستانها وفص الألماس الصغير فى أصبعها . أما أوانى الزرع الأخضر والأحمر والأزرق فى أركان المكتب ونافذته فهى لوحة رقيقة . . وشىء غريب وهو أين يذهب الصوت . .

إن صوتها يصلنا فقط ، ولا يسمعه أى أحد يبعد عنا مترا واحدا . ولا أين تذهب أصواتنا . ودفعنا المقاعد على أرض من المطاط . . ودخلنا ووجدنا رئيس مجلس الإدارة واقفا ينادى كل واحد منا باسمه . ففى يده ورقة ونحن وقفنا ودخلنا وخرجنا حسب الترتيب المكتوب فى الورقة .

وكان عندى وقت اتفرج على المكتب ، بينما المهندسون

يتكلمون بسرعة فى موضوعات معروفة لهم ، الأرض - لا أعرف إن كانت يمكن وصفها بأنها أرض أو أرضية أو سقف - مغطاة بسجاجيد صغيرة بديعة . وعلى الجدران لوحات فنية جميلة . . والغرفة واسعة وليس لها إلا مكتب واحد ضخم بسيط وليست عليه ورقة واحدة . ولا قلم ولا أى شىء . . ولا ساعة على المكتب أو على الحائط . . والتليفونات مختلفة الأحجام تضىء كلها ولا ترن .

طبعا لا جاءت قهوة ولا شاى ولا فرقع عود كبريت من أجل سيجارة .

لا شىء ورغم إنها بلاد باردة فلا يوجد خشب لا على الأرض ولا الجدران ولا السقف ، فقد اخترعوا مواد أخرى أرق وأروع .

ودفعنا المقاعد أمامنا وخرجنا وأغلق الباب من ورائنا . واختلفنا حول الذى أعجبنا أكثر ، وأجمعنا على أن البساطة هى قمة الجمال !

(٨)

ضحك الناس على فتاة أمريكية راحت تبكى وتولول عندما كانوا يقطعون إحدى الأشجار عند حديقة الحيوان . وقالوا : مجنونة !

وهى ليست مجنونة . فهى تعمل فى حماية البيئة . ورأت عدوانا لا مبرر له على زراعة الخديو إسماعيل حول هذه الحديقة التى بناها ، ولم تضف إليها حديقة أخرى !

ومن الممكن أن تقف إلى جوار هذه الفتاة ألوف الفتيات وتجىء كل كاميرات التليفزيون والصحف لو حدث ذلك فى أية مدينة أوروبية . ثم إن هذا من المستحيل أن يحدث إلا إذا ثبت أن هذه الشجرة تفرز فيروس الإيدز والكبد الوبائى !

والذين عاشوا فى أوروبا يعرفون أنه ليس فى استطاعتك أنت أن تقطع شجرة فى حديقتك أنت ! أنها حديقتك . ولكن الشجر من حق البيئة التى تحميها الدولة . يعنى إية ؟ يعنى إذا أردت أن تقطع شجرة فلابد أن تستأذن وأن تتقدم بأعذار وجيهة جدا . فإذا كانت الاعذار وجيهة فلك أن تقطع الشجرة وأن تكتب تعهدا بزراعة شجرة من نفس النوع فى نفس المكان . وسوف يجىء مفتش الصحة والجمال والبيئة ليتأكد من ذلك بنفسه . لاتنس أن هذه حديقتك أنت ومع ذلك لست حرا فى أن تزرع وتقلع على كيفك !

وفى كثير من المدن الأوروبية تجد المرور يدور ويلتوى لأن شجرة

قائمة فى قلب الطريق . بل إننى رأيت فى إحدى المدن السويسرية - ربما زيورخ - فروع شجرة امتدت إلى داخل أحد البيوت . . فصنعوا لها نافذة واسعة لكى تدخلها أغصان هذه الشجرة - أى لم يجرؤ أحد على أن يقطع هذه الأغصان !!

قال لى صديقى ونحن نتمشى فى مدينة هيدلبرج بألمانيا : تحب تشوف شيئا غير مألوف لنا فى مصر . .

فتوقف ومد يده إلى إحدى الأشجار وقطف زهرة . وكان معنا أصغر أبنائه . فما كان من الطفل إلا أن صرخ يقول لأبيه : كيف فعلت ذلك؟ ألا تعرف أن هذا ممنوع ! لاتغضب يا أبى إذا ذهبت للبوليس لكى أبلغ عنك . . . يجب أن تعتذر لأقرب جندى فى الشارع . . . هذا شىء فظيع !

هل تعرف كم عمر هذا الطفل . . . أنه ست سنوات . وحاول أبوه أن يقنعه فلم يقتنع . وعند الطفل حجة قوية : كيف تمنعنى أن أفعل ذلك ثم تقترف أنت هذه الجريمة فى حق زهرة !

أى فى حق الحياة والجمال معا !



(١)

باريس جوها نهارا دافئ كأنه القاهرة مساء . . وليس هذا هو التغيير الوحيد الذى يغمرنا . . وإنما هناك شىء آخر غريب عجيب .

فبلدية باريس تحاول شيئا جديدا . فقد وسعت الأرصفة التى يمشى عليها الناس (القاهرة هى العاصمة الوحيدة فى الدنيا التى ليست لها أرصفة ومطلوب من الناس أن يمشوا على الرصيف الذى لا وجود له . . وألا يمشوا فى الشوارع الضيقة . ومطلوب أن يتعلموا المشى على الحائط مثل الزواحف الصغيرة . كيف ؟!) .

وكان من المعروف أن باريس هى مدينة النور . . فلا فرق بين الليل والنهار فهى مضيئة دائما . . وهناك مصادر أخرى للنور هى : العلم والأدب والفن والحرية والجمال والأناقة والرشاقة والشياكة والعطور . . ولكن محافظ مدينة النور قرر . أن تعرف المدينة جمال الليل . . فهى لاتعرف إلا النهار ٢٤ ساعة . . وهو لم يطفئ مصابيح ، وإنما جعل لها مصابيح خضراء تغمر الأشجار بلونها فتبدو أكثر اخضراراً . . الأشجار وأوراقها والعصافير ووجوه الناس والأشياء . . فاستراحت العين . . واستطاع المشاة من وراء الأشجار

ومن خلالها أن يروا الآثار البديعة فى المدينة : برج إيفل والمسلة الفرعونية والتماثيل والأعمدة . .

ثم قامت المدينة بتجربة جديدة وهى منع السيارات فى جزء من شارع الشانزليزية . . وتركته للناس يمشون على حريتهم . . ومعظم العواصم الأوروبية تفعل ذلك . . تماما كما لو سددنا شوارع سليمان وقصر النيل وعماد الدين ، وتركنا قلب المدينة للمشاة مرة كل أسبوع أو مرتين هما الجمعة والأحد . .

وكانت السعادة واضحة على وجوه أهل باريس والقادمين من الريف الفرنسى وعلى وجوهنا نحن أيضا . . فالناس يتحركون بحرية ويتعانقون - كما هى العادة - فى محطات الأتوبيس وفى عربات المترو . .

سألت الفرنسيين هل تختارون جاك شيراك عمدة المدينة خلفا لميتران مكافأة له على ما قام به من تجميل المدينة وشوارعها ، وأقام مواقف للسيارات تحت شارع الشانزليزية ، ولكن الفرنسيين قالوا ليس من الضرورى . ومن الأفضل أن يبقى عمدة للمدينة ليزيد باريس جمالا ودلالا ؟!

من يدرى ربما تغير هذا الرأى !

(٢)

أرجو أن تسمح مصر بدخول العدد الأخير من مجلة (لوبوان) الفرنسية التى نشرت بحثا عن (الحياة الحقيقية لمحمد - صلى الله عليه وسلم -) . والا ينزعج أحد من الصور المرسومة على الغلاف .

فقد كنت أتمشى فى شارع الشانزليزية الساحر عندما رأيت مجلة (لوبوان) وبادرت بشرائها وأنا فى حالة من الضيق والغيظ . . مع أننى لم اقرأ منها سطرا واحدا . ولكن توقعت أن تكون المجلة معادية للإسلام ؟! وعدت إلى الفندق ولم انم إلا بعد أن قرأت المقال . وشعرت بارتياح شديد . وأحسست أن هذه المجلة عاقلة فهى لاتستطيع أن تعادى ألفى مليون مسلم . أما المقال ـ فأنا كمسلم ـ لم يضف لى جديدا !

ولكن الجديد أن المقال مفيد وموضوعى وأمين تماما . والكاتب يعرض حياة الرسول بمنتهى الصدق . ومما قاله كاتب المقال : أنه عندما ينام ثلثا سكان الكرة الأرضية فإن ثلثها الباقى يمشون فى الشوارع عند الفجر فى طريقهم إلى المساجد للصلاة . إنهم المسلمون .

والأحاديث النبوية التى نقلها عن الرسول - صلى الله عليه وسلم . كانت فى غاية الدقة وفى أماكنها تماما . فهو قد نقل عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قوله : إنما حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة . .

وأشار المقال إلى أن الصور التى نقلها عن المراجع التركية للرسول

واصحابه وأولاده كانت حريصة على أن تجعل وجه الرسول مضيئا دون أن ترسم له ملامح محددة ـ دليلا على عظيم الاحترام لشخصه الكريم ..

وتعرض لزواج الرسول من السيدة عائشة التى خطبها فى التاسعة من عمرها ودخل بها عندما بلغت الثالثة عشرة .. وكانت أجمل وأحب زوجاته إليه ..

وبما كانت علامة التعجب الوحيدة فى المقال هى عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فقد جاء فى القرآن (إنه كان حنيفا مسلما) ـ أى أنه ما كان يهوديا !

وقد نشر كاتب المقال عناوين المراجع المحترمة عن حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ..

ولذلك فإننى لا أرى مانعا مطلقا فى دخول مجلة (لوبوان) الفرنسية .. مع الاحترام والامتنان للكاتب والمجلة ..

(٣)

استطاع الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة أن يكهرب الدوائر الفنية فى باريس . . فقد أقام معرضا فى قلب باريس من اللوحات المنسية لكبار الفنانين الفرنسيين اللوحات كلها من مقتنيات محمد محمود خليل . هذه اللوحات دخلت كتب التاريخ على أنها مفقودة فلا أحد يعرف أين هى . أو هى لوحات سمع الناس عنها ، ولكن أحدا لم يرها !

أن ٩٠٪ من المثقفين فى مصر لم يروا هذه اللوحات . ولا عندهم أية رغبة . . إية يعنى لوحات على حائط؟! وإية يعنى مدارس تعبيرية أو تأثيرية أو انطباعية أو سريالية . . هوه ده اللى ناقص مصر - إلى آخر الكلام الذى يقال فى مثل هذه المناسبات ويكون دليلا على قلة الذوق وسوء التربية الفنية والتخلف عن الحضارة . ولكن المواطن الفرنسى قد دربه أهله على الجمال والذوق . . فالأطفال الصغار يزورون متحف اللوفر ويرون ويسمعون مالا يفهمون . ولكن لابد أن يسمعوا وأن يعودوا ليفهموا . وأن يتعاون الأب والأم والمدرس على غرس الطفل فى رياض الفن والجمال . وليس فرنسيا من لايتذوق جمال الإبداع ومخلوقات الله .

ومن عبارات مدام سستمابل الشهيرة : لقد تعلمت وأنا طفلة صغيرة جدا كيف أحب كل ما هو فن جميل !

لقد هجم الفرنسيون على المعرض الذى أقامته مصر وكان المعرض أعظم تحية لمصر : أنها تحتفظ بالروائع الفنية وتعرف كيف

تصونها وكيف تعرضها وكيف تقدرها وتتذوقها . . وأنها احتفظت لفرنسا وللحضارة الإنسانية بهذه التحف . وليس غريبا على مصر أم الحضارات أن يكون لها مثل هذا الذوق الرفيع . .

لقد ترنحت باريس فعلا لوجود هذه التحف البديعة . . فمثلا هذه اللوحة ثمنها ٤٥ مليون دولار ـ بس مصر توافق! وتلك اللوحة لانظير لها فى أى متحف . . سيدة ذهبت لوزير الثقافة تقول له بمنتهى الصدق : هذه اللوحة بالذات أتمنى أن أجدها عندنا فى فيينا !

وأخرجت السيدات العواجيز العدسات الكبيرة تضعها بالقرب من اللوحات . . إن رجلا واحدا فنانا مخلصا وطنيا قد استطاع وحده أن يحقق للفن والحضارة ولمصر هذا الاحترام العظيم . . إنه محمد محمود خليل الذى يستحق منا أن نقيم له تمثالا فى متحف دليلا على الامتنان والاحترام العظيم . .

(٤)

قال لى الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة إن فى الاسكندرية لوحات أصلية لعظماء الفن الأوروبيين . واندهشت كيف أن هذه اللوحات ليست فى القاهرة فى الحفظ والصون ـ فى العناية المركز من التكييف والحراسة حتى لا تتأكل هذه اللوحات بسبب الرطوبة والحرارة . إن قرارا سياديا يعيد هذه اللوحات إلى القاهرة ، فهى ليست من ممتلكات المحافظة أو البلدية . . ولكن من ممتلكات مصر والحضارة الإنسانية . .

وكذلك كل التماثيل الملقاة فى الحوارى والمقلوبة على وجهها فى الإسكندرية وغيرها . .

إن فرنسا محظوظة هذا العام ، فقد اهدينا لعلمائها ومؤرخيها ونقادها أكثر من مائة لوحة ـ يتفرجون عليها فقط ويدرسون ويسجلون وينشرون .

كما أن روسيا قد أعلنت أنها سوف تقيم معرضا لسبعين لوحة لكبار فنانى المدرسة التأثيرية فى فرنسا أيضا . هذه اللوحات استولى عليها الروس أثناء احتلالهم لألمانيا الشرقية . . سرقوها من المتاحف . وأودعوها غياهب قاعات متحف أرميتاج بمدينة سانت بطرسبورج (لننجراد) ولم يقتربوا منها أربعين عاما . . ولم يشأ مدير المتحف الحالى أن يعلن عن وجودها قبل أن يقوم بترميمها وطلاء براويزها .

ومن المؤكد أن السلطات الألمانية التى أعطت روسيا المسكن والطعام والشراب ومليارات الدولارات لن تتردد كثيرا فى إعادة هذه اللوحات إلى ألمانيا دون أن تذهب إلى القضاء . . وإلا كان الرأسماليون الروس أكثر انحطاطا من الشيوعيين الروس . فلولا المساعدات الألمانية الهائلة ما عاش حتى اليوم نصف الشعوب الروسية . .

ولابد أن تطالب فرنسا بعرض هذه اللوحات فى باريس ، كما فعلت مصر : وليمة رائعة لمحبى الفن الجميل فى فرنسا وأوروبا كلها . .

وفى روسيا الآن وفد من الفنانين ورجال القانون الألمان يتفاوضون فى هدوء . والهدف إعادة هذه اللوحات إلى أماكنها فى متاحف ألمانيا . . ولما علم الألمان أن متحف (أرميتاج) قد أدخل تعديلا على ثلاث لوحات احتج بشدة وطالب بعودتها حالا إلى ألمانيا لترميمها ثم إعادتها إلى المتحف الروسى لعرضها ثم استعادة جميع اللوحات نهائيا بعد ذلك .

أما الزحام الشديد على اللوحات المصرية فلم تعرف له باريس مثيلا منذ عشرات السنين . قالت لى سيدة فرنسية وهى سعيدة : لقد عرفنا كل اللوحات الموجودة فى المتاحف . . أما هذه اللوحات المنسية فقد فتحت عيوننا . . وفتح العيون هو ما نحتاج إليه الآن فى كل شىء !

(٥)

نحن فى القاهرة وفى الإسكندرية ومعظم العواصم معزولون تماما عن السماء . . نحن لا نراها . . وإنما الضباب والهباب والسحاب وانعكاس الأضواء على ذلك يجعل بيننا وبين السماء ستارا كثيفا . . حجابا . . غمامة بيضاء سوداء زرقاء . . فنحن لا نرى إلا نجمة أو نجمتين . . ولكن إذا أردت أن تصاب بالرعب والحيرة وأنت تنظر إلى السماء فاذهب إلى الصحراء . . إلى الوادى الجديد . . إلى الواحات . . فسوف ترى نجوم السماء التى لا أول لها ولا آخر . . قريبة يخيل إليك أنك تستطيع أن تمد يدك إليها . . ما هذه العظمة . . ما هذا الجلال والجمال . . ما كل هذا ؟ وأين كل هذا ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وما الحكمة وما المعنى ؟

وألف سؤال آخر ولا إجابة عندنا على شىء من ذلك . فالمسافات بينك وبين هذه النجوم بالوف ملايين الكيلو مترات . . والصورة التى أمامك السنين الطويلة . . أى أن هذه النجوم قد ارسلت اشعتها الينا فاستغرقت الوف أو ملايين السنين . . فقد لاتكون هذه النجوم موجودة الآن ؟

والسماء فوقك تولد فيها نجوم وتموت نجوم وتحتضر نجوم . . وهذه الشمس وهى النجمة الوحيدة التى تدور حولها كواكبنا التسعة وأقمارها الخمسون قد تجاوزت نصف عمرها . أى أنها سوف تموت بعد أربعة آلاف مليون سنة !

وفى السماء كما فى الغابات والبحار وبين الناس تجد الكبير يأكل الصغير . . فهناك نجوم تبتلع نجوما . . وتكتم أنفاسها . . تماما

كما تلتهم اللبؤة الفريسة وتخنقها فلا يكون لها صوت . . وكذلك (الثقوب السوداء) تبتلع النجوم والمجرات وتخنق الأشعة الصادرة عنها فلا تصل إلينا . . فلا نراها . .

والكون يتمدد . . أى يتراجع . . والأصح أن نقول ليست النجوم والمجرات هى التى تتراجع ، ولكن الفضاء يتراجع ويسحب معه كل هذه المجرات . . ألوف ملايين المجرات أى ملايين ملايين إلى نهاية الصفحة من النجوم والكواكب كلها تتراجع إلى مالا نهاية . . فنحن لانعرف نهاية الكون وإن كنا نعرف بداية (هذا) الكون . . أى أن الله خلقه من ١٥ ألف مليون سنة . نحن الذين نقول ذلك . .

ولكننا لا ندرى إن كان (هذا) الكون هو الوحيد أو أن هناك ألوف ملايين الأكوان الأخرى ولدت وماتت لتولد من جديد . . فانظر إلى فوق لحظة ، واركع واسجد لصاحب الجلال والجمال ساعات ـ آمنت بالله . .

هذا الكون !

(١)

هناك نظرية تقول أن الكون قد بدأ بأن انفجرت حبة صغيرة مثل حبة السمسم . وهذه الحبة تفجرت منها طاقات وقوى وغازات ومواد ونيران وعواصف ، وهذه الحبة تزن مالا نهاية له من ملايين المليارات من الأطنان . . هى التى ولد منها الكون . . وأنها لاتزال تنطلق بسرعة هائلة منذ ذلك الوقت ـ أى من ١٥ ألف مليون سنة . .

وهناك نظرية أخرى تقول . . أنه بعد ألوف ملايين السنين سوف تتناقص سرعة الانطلاق والتمدد . . فينكفىء الكون كله على نفسه ويتساقط على مركز ويتكاثف ويتكاثف حتى يعود كما بدأ . . ذرة فيها كل القوى وكل الطاقات . . ليعود فينفجر مرة أخرى . .

والسؤال : من الذى بدأ هذا الكون أول مرة ، والمرة الثانية ، ومن يدرى المرة المليون ؟ ولا جواب على ذلك إلا بأن نقول : أنه الله .

كيف : لا نعرف لماذا ؟ لا نعرف . ما الحكمة ؟ لانعرف . . إلى متى يتكرر كل ذلك ؟ لانعرف . .

أن فى السماء نجوما صغيرة جدا قطرها بعشرات الكيلومترات

شديدة الجاذبية تدور حول نفسها بسرعة وتطلق اشعاعات قوية .. تبدو فى السماء كأنها الفنارات .. هذه النجوم اسمها : بلسار .. لو أخذنا منها جزءا فى حجم الليمونة لكان وزنها ألف مليون طن وربما أكثر ..

والمسافات بين النجوم والمجرات فى هذا الكون كلها غازات وتراب ، فالكون كله قد نشأ من تراب . والإنسان من تراب ، والإنسان ليس إلا خلية حية كانت هناك . أو جاءت من هناك .. من حيث لاندرى .. نحن جميعا كنا هناك . وتطورت هذه الخلية الحية .. وتطورت .. وعن طريقنا عرف الكون نفسه .. لأنه لايعرف نفسه .. لايعرف نفسه إلا بنا نحن .. أما كيف تطورت الخلايا .. أو كيف جاءت هذه الخلايا الحية على ظهور المذنبات والنيازك وهبطت على الأرض لتستأنف حياتها وتطورها ، فنحن لانعرف ..

وقد رأيت فيلما لعشرين من علماء الفيزياء والفيزياء الفلكية يتقدمهم : أنيشتين وفرمى ويوروهيرندبترج وجيلمان فى حيرة ودوخة وذهول وهم يتطلعون إلى السماء وإلى الخرائط .. لو قال لهم أى إنسان : وحدوه !

لكن جوابهم جميعا ـ رغم عقولهم وأنوفهم وغرورهم : لا إله إلا الله !

(٢)

كل الأبحاث الفلكية الآن تتجه إلى معرفة إن كانت هناك كواكب أخرى غير التى تدور حول شمسنا صالحة للحياة . . لماذا ؟ لأن هناك نظرية تقول إن الحياة على أرضنا قد بدأت فى مكان آخر وانتقلت إلى هذه الأرض . على شكل خلايا عضوية فى المذنبات والأحجار التى تهبط على أرضنا بواقع ألوف الأطنان سنويا .

ومعنى النظرية أن الحياة والميكروبات وكل صور الخلايا الحية قد جاءت من الفضاء إلى الأرض .

نظرية أخرى تقول : لابد أن هناك كائنات أعقل من الإنسان فى مكان ما . . وليس من الضرورى أن يكون العقلاء مثل الإنسان فى الطول والعرض . ولا من الضرورى أن تعيش هذه الكائنات على الأوكسجين مثلنا . . هناك خلايا حية لاتحتاج إلى الأوكسجين . . وقد انطلقت عدة سفن فضاء تبعد عنا ألوف ملايين الكيلو مترات فى طريقها إلى الكواكب فى منظومات شمسية أخرى . . لعل أحدا عاقلا يهتدى إليها ويعرف موقعنا من الكون . . ففى هذه السفن صور للحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية وتسجيلات بالصوت والصورة لحياتنا الفنية والموسيقية . . إنها بطاقة شخصية لمن يهمه الأمر ليعرف أننا نحن عقلاء أيضا ونريد أن نعرف غيرنا ، أو يعرفنا غيرنا . . وفى السفينة (فويجر ٢) توجد عبارات باللغة العربية بخط النسخ بصوت لفتاة مصرية تعيش فى أمريكا . . وأصوات بكل لغات الأرض أيضا . .

ومن المؤكد علميا أن كل شىء من تراب . . غازات متدفقة بلا توقف من ١٥ ألف مليون سنة . . فالكون كله من تراب ملتهب أو جليدى ومن غازات ملتهبة أو جليدية وإذا أردت أن تعرف شكل وحجم التراب الموجود فى الكون فافتح التليفزيون فإذا وجدت الشاشة بيضاء وبها ذرات تتحرك ولا نهاية لعددها ، فهذه الذرات هى التراب الكونى الذى يتحرك فى كله اتجاه من ١٥ ألف مليون سنة . . هذا هو التراب الكونى ومن هذا التراب خرج كل شىء . . كل نبات وحيوان وإنسان وأية كائنات أخرى فى أى مكان آخر . .

وأى مكان آخر فى الكون ليس فضاء . . لا يوجد فضاء . . وإنما يوجد ملاء . . غازات وأتربة . . تتداخل وتتفاعل وتأكل بعضها البعض وتتوالد منها تكوينات جديدة . . حية أو ميتة . . فكل شىء يندفع ويلف ويدور ويموت ويولد من جديد . . كل شىء فى أى مكان . .

(٣)

ولايوجد جسم واحد فى الفضاء ليس حوله أجسام صغيرة تدور . . تراب وحجارة وجليد . . لا نعرف من أين جاءت . . ولا من أية أجسام أخرى تخلقت . . أو تساقطت ثم وقعت فى جاذبية أجسام أكبر سواء كانت نجوما أو كواكب . .

وعلى الرغم من أننا نعرف الكثير عن الكواكب التسعة التى تدور حول شمسنا وعن الأقمار الخمسين التى تدور حول هذه الكواكب . . فإننا لانزال نريد أن نعرف أكثر من كانت الحياة ممكنة على هذه الكواكب أو هذه الأقمار التابعة لها . .

فكوكب المشترى وهو أكبر الكواكب وأجملها لونا من الغازات . . أى إنه أقرب بتكوينه إلى الشمس منه إلى الأرض . . فهو طبقات من السحب والغازات الباردة والغازات السائلة والغازات المتجمدة . . وحوله ١٦ قمرا . . أربعة منها اكتشفها العالم الإيطالى جاليليو فى القرن السابع عشر . . وذهب إليه الشاعر الإنجليزى ملتون لكى يتفرج عليها من منظار صغير متواضع . .

ومنذ عشرين عاما سجل علماء الفلك أن مذنبها دخل فى جاذبية كوكب المشترى . وأن المذنب يدور حوله بسرعة . وهذا المذنب كان يدور حول الشمس من ألوف ملايين السنين . . ولا أحد يعرف ما الذى جعله يقع فى جاذبية المشترى . .

وفى يوم ٨ يوليو سنة ١٩٩٢ اقترب هذا المذنب وأصبح يدور على مدى ٢١ الف كيلو متر من جو المشترى . وأن هذا الاقتراب

المفاجىء قد حطمه إلى ٢١ قطعة وتراب وغازات . . وأن هذا المذنب طوله ثلاثون مليون كيلومتر . .

وفى يوم ٢٥ مارس ١٩٩٣ رصده ثلاثة من الفلكين كارولين شو ماكر وزوجها يوجين واحد هواة الفلك دافيد ليفى . واتخذ المذنب اسم (شو ماكر - ليفى رقم ٩) - لأنهم قد اكتشفوا قبل ذلك ثمانية مذنبات ذات مدارات منتظمة . .

ولاحظ الفلكى الكبير مارسون أن هذا المذنب يترنح فى انطلاقه ودورانه حول المشترى . وهو الذى حدد له لحظة الارتطام المتوالى بجو كوكب المشترى . . والعلماء يسمون المذنبات : ديدان السماء . وهذا المذنب هو أحدثها . .

ولكن المكتشفة كارولين شو ماكر تقول : بل هو عقد من اللؤلؤ . . فى عنق المشترى ؟!

(٤)

لقد اصطدمت مذنبات كثيرة بكل الكواكب والنجوم فى السماء من ألوف ملايين السنين . . ولكننا لم نعرف إلا القليل من هذه الأحداث الفلكية . . أخطرها وأشهرها ما حدث على هذه الأرض من ٦٥ مليون سنة . فقد اصطدم أحد المذنبات بالأرض فقضى على حياة النبات وكثير من الحيوانات فى مقدمتها الديناصورات التى عاشت على الأرض مائتى مليون سنة . . ومن بعدها ومن قبلها حدثت ارتطامات كثيرة لاتزال آثارها موجودة فى الصحارى الأمريكية والأفريقية . .

ولكن مذنب شوماكر - ليفى هو أول مذنب يدرسه العلماء بدقة ويرصدون انطلاقه واختلاله وسقوطه . . ثم يواجهون إليه مئات المراصد فى الأرض .

ولأن الارتطام قد وقع بعد منتصف ليل ١٦ يوليو الحالى ، وعلى الجانب البعيد من كوكب المشترى . . والذى سوف يستدير لنراه بعد وقوعه بنصف الساعة فإن أحدا لن يرى ما حدث . . ولكن سوف يرى (صدى) ما حدث . . أى سوف تسجل مراصد الأرض الهزات التى وقعت فى جو المشترى - اليابانيون سجلوا ذلك . . أو تحليل الطيف الذى انعكس على أحد أقمار المشترى - المصريون فعلوا ذلك . . ويستغرق الشعاع من المشترى ٤٨ دقيقة لكى يصل إلينا . .

وفى الفضاء يوجد الآن ثلاثة مراصد سوف تبعث بالصور والتحليلات الصوتية والهزات الزلزالية إلى الأرض .

فـهناك المرصـد المدارى (هابل) الذى سـوقف يوجـه عـدسـاته وهوائياته إلى كوكب المشترى الذى يبعد عنا ٦٠٠ مليون كيلو متر. وقد سجل وبعث بصور يصفها العلماء بأنها تحفة فنية .

وهناك سفينة الفضاء (جاليليو) المتجهة إلى كوكب المشترى من سنة ١٩٨٩ والتى سوف تسقط بعض أجهزتها إلى جو المشترى فى العام القـادم . وعلى الرغـم من أن خللا أصـاب هوائيـات السـفينة (جـاليليـو) ، فـأنهـا قـد أرسلت عـددا مـن المعلومـات بواقع خـمس رسائل كل ثانية بدلا من ١٥٠ رسالة كل ثانية . .

ثم سـفـينة الـفـضـاء (فـويجـر ٢) التـى خـرجت من المنظومـة الشـمـسيـة ، وتبعـد عنها الآن حـوالى ثـلاث آلاف مليون كـيلو متر متجهة إلى منظومة أخرى فى هذه المجرة التى نقع نحن عند طرفها الجنوبى . .

(٥)

يحتاج علماء الفلك والفيزياء الفلكية إلى سنوات عديدة ليعرفوا نتائج سقوط وارتطام المذنب شوماكر ـ ليفى . . فهم يريدون أن يعرفوا طبيعة جو الكوكب . . وأن يعرفوا أيضا ماذا يحدث إذا ارتطم مذنب بكوكب . . كما حدث لأرضنا ألوف المرات . . ويريدون أن يعرفوا ما هذه البقعة الحمراء . . أو العين الحمراء التى تظهر فى جو المشترى بصورة ثانية . .

هناك نظرية تقول : إنها إعصار من ملايين السنين . . وإن مساحة هذه الإعصار مثل مساحة الأرض . . وأن هذا الإعصار لايزال ثابتا بسبب انخفاض درجة الحرارة إلى ١٢٠ مئوية تحت الصفر . .

ويتوقع العلماء أن ما سوف تحدثه أحجار المذنب التى يستغرق سقوطها ستة أيام سوف ينعكس على أقمار المشترى وفى الجو حوله . . وبعض العلماء يقول إن شيئا ما سوف يحدث فى جو الأرض . وأصحاب هذا الرأى قليلون جدا . . وإن كانت لديهم حجج قوية . . وسوف يقول لنا العلماء ماذا كان يحدث لو أن هذا المذنب قد اتجه إلى الأرض . . وأصابها عشرين مرة على مدى ١٢٠ ساعة بقوة انفجار تعادل ألف مليون قنبلة ذرية . . لو حدث لتبخرت مياه المحيطات واحترقت الغابات واختفى الحيوان والإنسان . . ولكن سوف تبقى بعض الخلايا العضوية . . التى تستأنف الحياة وتتطور فى مئات الملايين من السنين . .

ومن يدرى ربما خرج منها كائن عاقل مثل الإنسان أو مختلف عنه . . أو قد لاتخرج حياة وتظل الأرض مهجورة موحشة مثل كل الكواكب الأخرى التى تدور حول الشمس . . وإن كنا لانعرف لماذا الأرض وحدها هى التى صارت صالحة لحياة النبات والحيوان . . ولماذا لايكون أو لم يكن المريخ مثلا . .

إن هناك دراسات حول الحياة على المريخ - أى الحياة التى كانت فى المريخ ، ثم تلاشت . . وإعادة للنظر فى اجتهادات العالم الفلكى الإيطالى اسكباريللى الذى قال إن على المريخ قنوات تتغير موسميا . . ولابد أن تكون هذه القنوات من صنع كائنات عاقلة مثلنا أو أعقل . . وأن هذه الكائنات اختفت لسبب ما . . وقد بقيت آثارها على سطح المريخ ؟!

إنه كلام . . خيال . . وليس حقيقة علمية بعد . . وكل الحقائق بدأت كلاما وخيالا . . ولكن الإنسان لايزال يبحث عن أصله . . من أين وإلى أين . ولماذا ؟

(٦)

السفينة (فويجر ٢) تتجه إلى منظومة أخرى - إن استطاعت .

وهذه المنظومة الأخرى عبارة عن شمس تدور حولها كواكب . نحن الذين نقول ذلك . . لأننا نتصور أن الكون من أوله لآخره عبارة عن نجوم وكواكب تدور حولها ، وأقمار تدور حول الكواكب - نحن الذين نتصور ذلك . .

ونحن الذين وضعنا هذه النظرية أو اكتشفناها . ونريد الكون كله أن يتحرك هكذا . لأننا نريد أن نجعل الكون مفهوما لنا .

ولكن من قال إن الكون يجب أن يخضع للقوانين التى وضعناها أو اكتشفناها ؟

إن العلماء قد وجدوا عددا كبيرا من الظواهر لاتخضع للقوانين المعروفة لدينا . .

ولذلك أعلن العلماء أن هناك مبدأ جديدا اسمه (مبدأ عدم اليقين) . هذا المبدأ معناه : إننا لانعرف إن كانت هذه الظواهر ستتحرك فى هذا الاتجاه أو فى ذلك أو لاتتحرك مطلقا .

ولا نعرف من أين جاءت ؟ ولا كيف حدثت ولا كيف تنتهى؟ فلا يوجد فى الكون الذى نعرفه شىء مؤكد أو دقيق أو منضبط . . بل هناك دائما مفاجآت . . أى أشياء تحدث أو تقع أو تظهر أو تختفى . . أو تعود للظهور مرة أخرى . . لماذا ؟ لانعرف !

إن الكون المنضبط جدا هو الذى ورثناه عن العالم الإنجليزى نيوتن . . ولكن تغيرت الآن النظرة والنظرية والطريق والهدف .

وأقـرب الحـوادث إلينا هى : هذا المذنـب الذى ارتطم أخـيـرا بكوكب المشترى . لقد فوجئنا به من عشرين عاما . ولا بد أنه كان يدور حول الشمس من ألوف ملايين السنين .

وفى الكون ألوف مـلايين المذنبـات تدور ويسـحـقـهـا الدوران والجاذبية وتصبح ترابا . . وتتطوح وتبدو فى الفضاء ذرات متباعدة جدا وتبقى إلى مالا نعرفه من ألوف ملايين السنين .

وفـجـأة دخل المذنب فى جـاذبيـة كـوكـب المشـترى . ورصدناه ، ولاحظنا أن مـداره حـول المشـترى ليس ثابتـا ، وإنما هو طالع نازل يرتجف . . يترنح . . وتوقع العلماء سقوطه .

ثم حـددوا تسـارعـه فى الاتجاه إلى جـو المشـترى ورصـدوا قوة ارتطامه . . أما نتائج ذلك فسوف نعرفها فى السنوات القادمة .

لقـد كان هذا المذنب مفـاجـأة لكل المراصد وشـاشـات عـقولها الألكترونية !

(٧)

فإذا أردت أن تذهب إلى مرصد القطامية بالقرب من السويس فاركب سيارة مجنزرة وخذ معك ثلاث زجاجات من الماء . أما السيارة هذه فلأن نصف الطريق إلى المرصد القديم الذى عمر أجهزته أربعين عاما وارتفاعه ٤٠٠ متر فوق سطح البحر ثعبانى ـ لا أقصد أنه ناعم كجلد الثعبان وإنما يتلوى كالثعبان وخشن مثل جلد التمساح . . ومن مزايا السيارة نصف جنزير أنك تستطيع أن تسد بها الطرق فتعترض اللوريات وتوقفها وتطلب إليها طعاما أو سجائر ثمنا لاستئنافها السير . . . أما الماء فزجاجة لك تشربها وزجاجة للعلماء المصريين الذين يشربون ماء عطنا فى البراميل ـ هذا إن وجدوه . . . . والزجاجة الثالثة تغسل بها يديك من حين إلى حين فكل شىء مغطى بتراب الكون وهباب وضباب القاهرة . . .

وكل شىء قديم فى المرصد . . . ولذلك تجد فتلة دوبارة تتدلى من المنظار . . وكل شىء يتحرك يدويا . . والفرق بين مرصد القطامية والمراصد الحديثة كالفرق بين السيارات التى تديرها بالمانفلة ، والسيارات الهيدراماتك . . التى تتحرك بمجرد الضغط بقدميك . . وأحدث شىء فى مرصد القطامية هو التليفون الذى يشبه تليفون العمدة فهو أحدث ما عندهم ولا أستبعد أنهم يلتقطون صورا له وهم يتحدثون فيه . .

وماعدا ذلك أبواب مكسرة وزجاج مدشدش قديم . .

وهؤلاء العلماء المصريون كأننا علمناهم فى أوروبا وأمريكا لكى يقودوا الطائرات ، فلما عادوا إلى مصر جعلناهم يسوقون عربات حنطور .

وكانت المراصد العالمية تتعاون معهم فى برامج مشتركة . ولكن لما تخلفنا عنهم ، ابتعدوا عنا . .

وهؤلاء العلماء المصريون المحترمون دوليا ، يلقون هوانا مصريا . . فلا عندهم أجهزة ولا مواصلات ولا ماء ولا كتب علمية ولا دوريات ولا قاعة تعرض الأفلام الفيديو التى تباع فى محلات السجائر فى أوروبا وأمريكا عن الكون ونشأته ونجومه وكواكبه ـ وأنا مستعد أن أعير مرصد القطامية بضع مئات من الأفلام على سبيل الصدقة والزكاة .

ولكن الذى لا أستطيعه هو أن أرى علماءنا وأسمعهم وهم يضبطون عدساتهم على كوكب المشترى هكذا . . يمين شوية يا دكتور . . كمان شوية . . ارجع تانى يا دكتور . . كمان شوية . .

من هذا الذى يقول ومن هذا الذى يحرك المنظار . إنه أحد العلماء قد امتطى سلما خشبيا مكسرا قذرا والآخر يحاول بيديه أن يضبط المنظار على أحد كواكب المشترى !

عيب ؟! والله عار أن يكون عندنا مرصد يدوى والمراصد الأخرى عقول الكترونية رائعة !

بين الشيوعية !

(١)

مدينة كييف ـ نار . . نار . . الجو فى أوروبا شرقا وغربا . وأنا أسير فى شوارع فيينا كأننى فى قنا . . حرارة خشنة . . مع رطوبة ثقيلة . والفارق الوحيد هو جمال الشوارع والغابات والفتيات . . وهناك اتفاق سرى بين المرأة والشمس . . الشمس تطلع والمرأة تطلع من هدومها . . فلم يتبق لها إلا بعض أوراق التوت موزعة توزيعا شحيحا هنا . . وهنا . . وخصوصا هنا . .

والمرأة سعيدة والرجال تعساء . . فهم لاينظرون إلى جمال المرأة فى كييف عاصمة أوكرانيا وفى فيينا عاصمة النمسا . . لأنهم فى حيرة ودوخة : ينظرون إلى إية ولا إيه ولا إيه !

والكل يمشى فى الشوارع مع أنه لايوجد سبب قوى لذلك . . ولكن هذه الاتفاقية السرية بين الشمس والمرأة ، تجعل الرجال يحرصون على التأكد من تطبيق كل بنودها على السيقان والصدور . . الخ .

والدول الأوروبية لم تستعد لهذه الحرارة الشديدة . . فالسيارات بها تدفئة والفنادق . . ولم يكن فى حساب أحد أن تتفتح جهنم على الناس فى أوروبا . .

فالدستور فى النمسا ينص على أنه إذا ارتفعت درجة الحرارة

على ٢٨ مئوية ، فمن حق أى إنسان إلا يذهب إلى العمل - إنها الآن ٣٩ مئوية فى أوروبا الوسطى !

والدستور الألمانى يمنع سائق التاكسى من ارتداء الشورت . . أما الآن فالكل بالشورت . .

وجماعة الرفق بالحيوان تحتج على استخدام الخيول فى جر العربات فى هذا الجو الفظيع . . ولكنهم فى فيينا يضعون فوق دماغ الحصان غطاء أو طرطورا لحمايته من الشمس !

والتليفزيون ينصح الناس ليلا ونهارا بالإقلال من العمل ، فالحرارة تؤثر على كل وظائف الجسم الإنسانى . . والأطباء ينصحون مرضى القلب بعدم الخروج إلى الشوارع . .

شىء عجيب : النساء كأنهن خيول عربية والرجال كأنهم حمير حساوى . . فليس عند الرجال ما يكشفون عنه فى هذه الجهنم التى انفتحت فوق وتحت . . فهم دائخون سياسيا واقتصاديا . . وجنسيا !

(٢)

تحمست جدا لأن أرى أية دولة شيوعية . . رأيت روسيا ولكن لم أستوعب بالضبط ماذا حدث . . ورأيت تشيكوسلوفاكيا قبل أن تنفلق نصفين . . ولم أجد ما أقوله . . وأن كنت من أشد الناس إعجابا بالمفكر الرئيسى الفنان هابل . . فهو صاحب فكر بديع وأسلوب جميل وعميق مريح . . ولا أجد إلا الوجودية فى فلسفته وليست الشيوعية . . لقد قرأت كتابين له فى شهر سعيد مثير وعلى استعداد أن أعود إليهما أكثر سعادة . . وسوف افعل . .

ولكن ذهبت إلى أوكرانيا أكبر ـ جمهورية فى الاتحاد السوفيتى ـ كانت وسوف تعود . .

وليست عندى فكرة واضحة عن هذه الجمهورية التى انفصلت عن الاتحاد السوفيتى ، والتى كان ستالين قد سحقها وضمها إلى الاتحاد السوفيتى كمجموعة من الفلاحين بالكرباج . فأوكرانيا نصف مساحة مصر وفى مثل عدد سكانها . وإن كانت أغنى زراعة ومعادن ومناجم ومصانع وغابات وحقولا . وقد حاول الرئيس الأمريكى هوفر من ٧٢ عاما أن ينقذها من مجاعتها ومحنتها .

ولكن أوكرانيا لها لغة خاصة بها . . وثلاثة أرباع السكان يتكلمونها والباقون من الروس والبولنديين واليهود . إن رئيس أوكرانيا الحالى وهو الرئيس كوتشما يتكلم الروسية أسهل وأفصح من لغته الأوكرانية التى لايتكلم بها إلا نادرا !

هذه الدولة انفصلت عن روسيا بعد سياسة الانفتاح التى أعلنها الرئيس جورباتشوف ـ وهو أوكرانى مثل خروشوف .

وقد سألت السيد كسيليف رئيس مصانع الصواريخ . فقال مستنكرا : نحن مستقلون !! مستقلون عن روسيا ؟ مستقلون فى أى شىء !

يعنى انه لا استقلال عن روسيا ولا يمكن أن تستقل بلاده .. فهم يتكلمون الروسية وثقافتهم روسية وارتباطهم بروسيا قديم جدا .. ومن سنوات قدمت روسيا شبه جزيرة القرم إلى أوكرانيا بمناسبة الذكرى الثلاثمائة لوحدة البلدين ..

فروسيا هى صاحبة القرار فى التفكير والتدبير .. أما أوكرانيا ففى التنفيذ فقط . مثلا : الصواريخ الحربية والتى تحمل سفن الفضاء كلها مصنوعة فى أوكرانيا ولكن عقولها الألكترونية موجودة فى موسكو .. أى لابد من نقل الصواريخ إلى موسكو لكى تكون عاقلة يمكن توجيهها إلى أى مكان خارج الأرض أو على الأرض . فكيف تكون أوكرانيا مستقلة ؟

سألته : هل تعودون إلى روسيا ؟

فأجاب بصورة قاطعة : هذا مؤكد !

(٣)

فى الطائرة من فيينا إلى كييف . . ظهر كل شىء واضحا . . فهؤلاء المبهدلون من الرجال والشاحبات من النساء من أوكرانيا . . وهذه الأشياء التافهة التى حملوها من أوروبا الغربية تدل على أنها لاوجود لها فى بلادهم . . إنهم ينقلون السلع من الغرب إلى بلادهم ليبيعوها بأعلى الأسعار (وهم يفعلون ذلك فى دول الخليج . . إنهم ينقلون البنات الجميلات إلى الخليج ، ويعود الرجال بسلع كثيرة إلى السوق السوداء فى كييف . . وفى أسواق كييف يباع كل شىء . . المسمار والشاكوش واللمبة . . والشبشب . . وكل ما نلقيه نحن المصريين فى الزبالة . . وفى الأسواق أناس يقفون وفى أيديهم كل شىء فهم تجار الشنطة الدولية) .

وهؤلاء الذين يشربون حتى تصبح عيونهم نارا ، هم أبناء أوكرانيا . . فهم لايضمنون أن يجدوا ذلك الشراب أو الطعام فى بلادهم . .

أما المطار فهو مهجور تماما . . كأنه مطار القاهرة من أربعين عاما إذا ما قورن بمطار بيروت الذى تبنيه الآن الشركات الألمانية التى أنقذت آثار أبى سمبل من مياه بحيرة السد . .

والأرض جربانة والعربات والسلالم . . كل شىء قد أصبح كهلا كهنة . . إن سبعين عاما من القهر السوفيتى تكفى جدا لهدم أعظم وأروع ما أقامه الإنسان فى أى مكان . .

أما عيون الناس فهى مثل عيون رجال مباحث أمن الدولة قسم

مكافحة المخدرات . . فهى تفتش الناس «عمال على بطال» . . ولاتملك غضب عنك إلا أن تقول : برىء يا بيه . وأنت فعلا برىء ، ولكن عدد المهربين والمزيفين وقطاع الطرق الذين سبقوك لا أول لهم ولا آخر . . فأنت تريد أن تكون استثناء فى هذه القاعدة .

ولكنهم لا يرون ذلك . . ولابد من التفتيش . . وعلى الرغم من أن بعض الناس قد همسوا فى آذانهم بأننا ضيوف رئيس الجمهورية ، فإن رجال الأمن يكتفون بالنظرات التى تتهم الجميع ولا تبرئ أحدا !

وخارج المطار ترى السيارات من كل لون ونوع . . أما سيارات؟ ويغمزون بعيونهم المافيا التى تحكم الشارع وتفرض اتاوة على كل الشركات والمؤسسات : يا الدفع يا الموت !

(٤)

فكل الجمهوريات التى استقلت عن روسيا ، كان قرار الاستقلال فيها شعبيا وطنيا وهذا يدل على إيمان الناس بالحرية ، مهما كان الثمن فادحا . وهو فادح جدا . فهذه الدول لم تعطها روسيا فرصة واحدة لكى تتولى إدارة شئونها . فالإدارة فى موسكو . والاتفاقيات تجرى فى موسكو . وهذه الدول لا تجربة لها فى الإدارة أو إقامة البنوك أو تحويل العملة . . . إنها دول (قاصر) تعتمد على بابا وماما فى الكرملين . . فالدول الشيوعية كبرت وشاخت ومع ذلك فقد عاملتها روسيا طوال سبعين عاما على أنها أطفال ترضع وتحبو . . . فقد أوقفت نموها تماما . ولما قررت هذه الدول أن تستقل كان القرار أكبر من قدراتها . . فاستقلت وانكفأت على مشاكل الاستقلال . فوجدت أنها عاجزة عن فعل شىء . . . فليكن ! أنها تفضل الجوع مع الكرامة ، على الشبع مع الهوان ـ ولكنها لم تثبت طويلا عند هذه العبارة أو هذه المعنى . فالجوع كافر بكل القيم والمبادئ .

فلم تؤد الحرية إلى الرغيف ، ولم يؤد الاستقلال إلى الاستقرار . . . ولذلك عادت الأحزاب الشيوعية إلى قوتها . . فالناس يفضلون الرغيف الروسى القديم على الهامبورجر الأمريكى الذى لايجدونه . . . وإن يجدوه فبأسعار غالية جدا . . .

ليس أقلها تجارة الرقيق الأبيض والأشقر والأحمر . . . وليس أقلها أن يلزم الرجل بيته يشرب الفودكا ليلا ونهارا وعلى زوجته الجميلة أن تطعمه هو والأولاد !

سألت أحد المفكرين من كييف : يعنى فى رأيك أنه لابد من العودة !

- نعم .

- إلى الشوعية ؟

- نعم .

- وإلى روسيا ؟!

- هذا مؤكد . . . لأن الشيوعية هى جنة الطبقة العاملة . . . فكل شىء مضمون . . العمل والأجر والطعام . . فحرية الحركة لا معنى لها إذا لم تعد فى النهاية برغيف وزجاجة فودكا وأن يظل البيت بزوجة وأولاد قائما !

- وهذا رأيك الخاص ؟

- بل معظم الناس . . .

(٥)

سمعت من المسئولين فى أوكرانيا أن عددا كبيرا من أبناء أوكرانيا قد هاجروا إلى موسكو لأن الحياة فيها أفضل .

الفلوس موجودة . والمرتبات أعلى ومضمونة .

ثم إن الناس يجدون الطعام . يجدونه بصعوبة ولكنهم يجدونه .

كما أن روسيا جعلت المواطنين يملكون الشقق التى يسكنونها ولم تتخذ قراراً بشأن الأراضى الزراعية . . لأن تفتيت الملكية الزراعية ، سوف يضعف التربة والمحصول .

فالميكنة الزراعية سياسة الدولة التى تملك ملايين الأفدنة وتستخدم فيها الآلات فى الرى والبذور والحصاد والتسويق والتشوين ـ فملكية الأرض فى روسيا مشكلة كبرى مثل ملكية المصانع الجبارة فى أوكرانيا . . ولكنك ما رأيك فى جورباتشوف ـ سألت السيد الكسييف رئيس مصانع الصواريخ التى تنتج الجرارات والسيارات والأدوات الزراعية ويحتكر استيرادها إلى مصر رجل الأعمال صلاح الدين محمود الصديق الشخصى لرئيس الجمهورية ؟

أجاب بسرعة : إنه رجل عبيط !

- جورباتشوف عبيط ؟!

- طبعا لأنه سمع كلام زوجته !

قلت له : أرجوك أعطنى فرصة أرتب الذى قلته الآن . أنت تقول أن جورباتشوف عبيط لأنه استمع إلى كلام زوجته فى هدم

الامبراطورية السوفيتية . وأحب أن أؤكد لك إننى من أشد الناس إعجابا به لكراهيتى الشديدة للشيوعية التى تحبها ولا ترى أفضل منها . ولكن لماذا تريد زوجته هدم الاتحاد السوفيتى ؟ وإذا كان هذا رأيها فكيف يكون رأيه هو ؟

فأجاب : أنها من التتار مثل يلتسن . ويكفى أن تنظر إلى عينيها المنفوختين وعينى يلتسن أيضا . . والعداوة بين التتار والروس قديمة !

قلت : لا أفهم . . كيف يقول ذلك رجل ماركسى مثلك . هل يستطيع إنسان رجلا أو امرأة أن يغير التاريخ وحده . . أو أن يفرض التغيير هكذا لأسباب شخصية نفسية ؟!

أجاب : ليس بالضبط . . ولكن من المؤكد أن السيدة رئيسا جورباتشوف شديدة الذكاء والقوة وهى زميلتك فى دراسة الفلسفة . .

قلت : لم أفهم .

قال : فعلا شيء عجيب لا يصدقه العقل . ولكن هذا ما حدث .

سألت : ويلتسن أيضا عبيط ؟

قال : ليس تماما . . ولكنه لم يستطع أن يستدرك أو يتدارك ما قد وقع بالفعل .

- يعنى إيه ؟

- يعنى يجب أن تنتظر حتى يتغير هذا النظام .

- تقصد عدم النظام ؟!

- بالضبط !

(٦)

وعدت للسؤال عن دور السيدة «رئيسا جورباتشوف» فى هدم الامبراطورية الشيوعية على دماغ الروس وعند قدمى الأمريكان والألمان واليابان .

فعرفت أن السيدة «رئيسا» من أصل إسلامى . . وأن يلتسين أيضا إسلامى الأصل وهما من التتار . . والتتار مسلمون . ولكنهم شيوعيون ملحدون . وأن أعماقها الإسلامية هى التى دفعتها إلى هدم الامبراطورية الملحدة !

لقد سمعت هذا الرأى من عدد كبير من المسئولين والمفكرين فى أوكرانيا . ويؤكدون رغم أنها ملحدة سياسيا ، فإنها مسلمة فى أعماقها . . أى أنها ملحدة سياسيا واقتصاديا ، ولكنها وجدانيا مؤمنة مسلمة !

ولكى يؤكدوا لى أنها ليست أعجوبة فى تاريخ روسيا ، فإنها مثل الملكة كاترين الثانية الألمانية الأصل التى حكمت روسيا من مائتى سنة . . وشديدة الطموح ، وقد علمت نفسها وكانت على صلة بالفيلسوف فولتير ـ اليوم يقارنون فى بريطانيا بين كاترين وبين الأميرة ديانا أيضا ، ويقترحون أن تقوم ديانا بدور كاترينا الثانية إذا عادت الملكية إلى روسيا ؟!

ويرون أن «رئيسا جورباتشوف» لاتختلف كثيرا عن كاترينا الثانية فى الطموح والقسوة والعداء لأوكرانيا أيضا . وأن بطرس الثالث زوج كاترينا كان رجلا عبيطا ذليلا ذلولا ـ وكذلك جورباتشوف ؟!

يعنى أن جورباتشوف عبيط لأنه هدم الاتحاد السوفيتى . ولأنه بعد أن حطم الاتحاد السوفيتى لم يقدم حلولا سعيدة للشعوب السوفيتية . . ولا هو أنقذ الشعب الروسى من هموم الدول التى يحتضنها وينفق عليها . . ولكنه فشل فى روسيا وفشل خارجها . . وهو لذلك رجل عبيط قد ضحكت عليه أمريكا والدول الرأسمالية!

يعنى إيه ؟ يعنى أن الشعوب التى استقلت عن روسيا ، لم تستقل . ولا تستطيع فهى مربوطة بها ولا فكاك منها . . ولم تتعلم ولم تتدرب على أن تعيش واقفة على قدميها ، وإنما راكعة عند قدمى روسيا أو جالسة على حجرها أو كتفيها . . فالقرار روسى فى كل شىء . وليس على هذه الشعوب إلا أن تطيع . ولا تزال نحن إلى الطاعة العمياء ، فقد تعبت عيونها وعقولها فى ظل الاستقلال!

(٧)

وفى مناقشة مع بعض المثقفين افتعلت قصة التشابه غير الدقيق بين رئيسا جورباتشوف والامبراطورة كاترين العظمى (١٧٢٩ - ١٧٩٦) . واندهش الناس . فوجه الشبه ليس كبيرا إلى هذه الدرجة .

فرئيسا ليست روسية وإنما تتارية ، كما أن نابليون إيطالى وهتلر نمساوى . . والرئيس يلتسين تتارى أيضا . . ولكن ما قيمة ذلك . . إنه لايغير من الموقف شيئا !

صحيح إن رئيسا قد تخصصت فى الفلسفة وكانت تقوم بتدريسها فى الجامعة . ولكنها شيوعية مؤمنة بالماركسية اللينينية . تماما مثل زوجها ومئات الملايين من السوفييت .

ولكن الامبراطورة كاترينا الثانية رغم أنها ألمانية الأصل ، فقد قام بتعليمها وتدريبها عدد من المربيات الفرنسيات . . فهى تقرأ وتكتب باللغة الفرنسية . . ثم إنها هى شخصيا قد كتبت مقالات ومسرحيات باللغة الفرنسية والألمانية وفى هذه الأعمال الأدبية تحدثت عن آمالها الأوروبية كما أنها بشرت بالأفكار الغربية القديمة . . وشجعت على الترجمة إلى الروسية ومنها . . وشجعت على البحث العلمى فى روسيا وخارجها . .

ولما تزوجت القيصر الروسى لاحظت أنه رجل متخلف عقليا . فعاشت بمعزل عنه تماما . ولما اتهمها بالخيانة أعلنت نفسها امبراطورة لروسيا وحبسته ثم اغتالته بعد ذلك . وكان زواجها هذا

بأمـر من الامبـراطور فـريدريش الأكـبـر . فـقـد رأى فى هذا الزواج تدعيما للعلاقات بين روسيا وبروسيا ، وإضعافا للنمسا . .

وقد أعطت للنبلاء مزايا هائلة لاتتفق مع روحها المتحررة . ثم فرضت الأحكام على أوكرانيا وفرضت الاستعباد على ملايين الفلاحين !

ولما حاولت أن تخفف من قبضة النبلاء الذين ساندوها فى السلطة ، ثاروا عليها . . فتراجعت وتشددت فى مساندة النبلاء . .

ولما قامت الثورة الأمريكية أعلنت (الحياد الايجابى) أو الحياد العسكرى ـ أى الاستعداد التام دون التدخل . . ولولا أن عاجلها الموت لتدخلت فى الثورة الفرنسية . .

فما وجه الشبه بينها وبين رئيسا جورباتشوف ؟

قالوا : إنها فرضت القهر والجوع والفرقة بين الشعوب الروسية !

(٨)

سفيرنا فى أوكرانيا حسين شلش رجل لطيف وكريم وابن بلد . . وهو سعيد بالفيلا التى استأجرها أخيرا للسفارة ويحاول أن يزرع حديقتها الصغيرة . . ونظرا لانخفاض قيمة العملة الأوكرانية فإن تكاليف إضاءة السفارة لمدة شهر تعادل ثلاثة دولارات أى ما يساوى ١٥٠ ألف كوبون ـ فالعملة مجرد ورق مطبوع لأن الدولة لم تنسلخ تماما عن روسيا والروبل !

وفى الاحتفال بثورة يوليو أقام السفير مأدبة غداء سخية فى أحد المتاحف ولم يجد الضيوف حرجا فى أن يستأذنوا السفير فى حمل بعض الأطعمة والحلوى إلى بيوتهم ـ أكثر الذين فعلوا ذلك كان السفراء والشخصيات الأوكرانية . أما نحن المصريين فقد أسعدنا أن نلتهم الطعمية !

وعندما تحدث السفير حسين شلش فى التليفزيون عن ثورة يوليو واحتفال اوكرانيا بمرور خمسين عاما على إنشاء مصنع الصواريخ ، أشاد بالدور الأوكرانى فى بناء السد العالى والتسليح وقطع الغيار . وأشاد بحرص الحكومة على التعامل مع مصر فى أى وقت . .

أما رئيس الجمهورية كوتشما فقد كان رئيسا لمصنع الصواريخ وكانت كلمته بليغة واقعية قوية وهو يتحدث عن التغييرات التى طرأت على البلاد وعن ضرورة ضبطها وربطها فى مواجهة مافيا الطعام والشراب والزراعة والصناعة والدعارة . .

وقال : إن أكثر الناس معجبون بنا ، ولكن أحدا منهم لن

يساعدنا . . يجب أن نساعد أنفسنا فى الخروج بسرعة من مأزق الصناعات الحربية إلى الصناعات المدنية والسوق الحرة . .

وقال الرئيس كوتشما إنهم فى أمريكا يقولون : كل ما يصلح لشركة جنرال موتورز يصلح لأمريكا ، وكذلك كل ما يصلح لمصانع الصواريخ يصلح لأوكرانيا ـ وسوف تتحول هذه الصواريخ النووية إلى صواريخ فضائية . .

ولن يتعطل المهندسون والمخترعون فأوكرانيا قادرة على التحول بسرعة وبراعة .

والسفير حسين شلش مثل شقيقة أستاذ العيون د . بهى الدين شلش فى كل مرة يشرع فى التدخين يعتذر لضيوفه . . فكلاهما يدخن نوعا رديئا جدا من السيجار ـ أنها مسألة مزاج !

كنت أقيم فى فيلا رئيس الجمهورية وسط غابة جميلة وعلى مسمع ومرأى من بحيرة صغيرة . . ولم أعرف بالضبط ما هو الفرق بين اللون والصوت . . . فالمياه لها صوت . . . والصوت رائق والماء أيضا . . . وكان طه حسين يصف الصوت الهادئ الرقيق الناعم بأنه صوت أبيض . . . أما هذا البلبل والكروان وطيور أخرى أسمعها ولا أراها فهى كورس غنائى بديع يبدأ بعد صياح الديك . . والديك هو العازف الأول فى سيمفونية الشروق وبعده تتجاوب أصوات الطيور وتلاحقها أشعة الشمس من بين أوراق الشجر تتدفق إلى سطح الماء . . هذا الذى صنعه الله تحفة يومية متجددة . .

أما الذى صنعه الإنسان فألوان من العذاب . . . فعلى مائدة الأفطار باذنجان بالخل والثوم . . . وأسماك مقلية جافة . . فقد أعادوا تسخينها أو إحراقها أو تعذيبها . . وقد دخت السبع دوخات لكى اقنع الطاهية أو الجرسونة بأننى لا أشرب الشاى إلا بالعسل . . . ولا أعرف معنى العسل باللغة الروسية أو الأوكرانية ولايليق أن أوقظ المترجمة فى الساعة الرابعة صباحا . وحاولت أن اقلد النحلة وهى تطير وهى تحط على الزهور ، ثم وهى تفرز هذا الرحيق . . وحاولت أن اؤكد لها أن العسل ليس المربى وليس السكر . . ولم أفلح . .

وخصمت العسل من بقية اللذات البريئة الجميلة لهذه الدنيا الصافية الشاعرية فى قلب الغابة الوحشية فإذا كانت كييف غابة تقع فى وسطها مدينة . . فكذلك مدينة (دينرو - بتروفسكى) . . . وهما مدينتان على نهر الدنيرو مثل القاهرة والجيزة ومثل بوادبست . .

ولم يتسع الوقت لكى أذهب إلى سوبر ماركت واشترى لنفسى بطرمانا من العسل . . . وشربت الشاى بالسكر لأول مرة من عشرات السنين . . . ولكن الباذنجان بالثوم والسمك المكوى بالنار فى الصباح يفوق احتمال أى إنسان حتى لو غمست هذا الطعام بالنور والحرير والزهور وغناء الطيور . .

أما البيت التى حول هذه الفيلا الرياسية فهى لقيادات النقابات والحزب الشيوعى وكذلك السيارات اليابانية والألمانية الجديدة . . كلها للقيادات .

والمرأة هنا تعبانة شقيانة . . فكثير من الأزواج قد أصابهم اليأس والاحباط ولذلك فهم مخمورون فى الشارع والبيت وبلا عمل ويعيشون على كد أم العيال !

(١٠)

وقفت أمام موظفة الاستعلامات فى الفندق الكبير . . تهامسنا . . نصحنا بعض المصريين المقيمين فى أوكرانيا بأن (نفتح مخنا) . . أى بأن نضع ثلاثين دولارا أى ما يعادل مليون ونصف مليون كوبون بقشيشا لكى نجد غرفة . . وبعد همس ولمس وهمز ولمز . . قالت الموظفة : ممكن ولكن . .

ولكنها لا تستطيع أن تأخذ هذا المبلغ لأنه حق السيد المدير وحده . . والسيد المدير فى إجازة . وعلى ذلك فالغرف يجب أن تظل خالية حتى يعود . وسألنا إن كان من الممكن أن نترك له الفلوس فى ظرف مغلق حتى يعود . . وقيل لنا : غير ممكن .

فسألنا : إن كان فى الاستطاعة حجز غرفة دون رشوة للموظفة أو للسيد المدير ؟

فكان قيامها وإدارة ظهرها لنا معناه : إن هذا هو المستحيل !

وذهبنا إلى فندق آخر تديره الكنيسة . . والفندق جديد . . والمشكلة فى كل مكان أن كل شىء ممزق ومهمل . . وأن الفنادق والناس فى غاية الإرهاق . . وأن السائح يجب أن يشترى لنفسه وبالدولار كل ما يحتاج إليه من السوبر ماركت . ويمكن بيعه فى السوق السوداء بأضعاف الثمن . . . فكل شىء معروض فى السوق التى هى حالكة السواد !

ولأن أوكرانيا ، مثل كثير من الدول التى انسلخت أو أفلتت من

الاتحاد السوفيتى وأن لم تتخلص من الشيوعية ، بها نشاط تجارى . . وبها شركات أجنبية كثيرة من كل الدنيا . . ولذلك ارتفعت أجور السكرتيرات اللاتى يعرفنا الإنجليزية أو الألمانية . . فمرتب السكرتيرة يصل إلى ٢٥٠ دولارا . . وهذا يعادل مرتب مجلس الوزراء ؟

ومن المعروف أن الرئيس جورباتشوف يتقاضى معاشا شهريا قدره ٣٨ دولارا . وهو لا يعيش هو زوجته وأحفاده من هذا المبلغ ، وإنما من عائد محاضراته ومذكراته فى أمريكا وأوروبا .

والموظفات يخفن من إيداع فلوسهن فى البنوك ، ويخفن أن يتركنها فى البيت - فالمافيا تشم رائحة الذهب فى البيت والبنك وفى أصابع وأعناق النساء . ولم أسأل عن المكان الذى تضع فيه المرأة فلوسها !

(١١)

إذا كـانت عندك فلوس وإذا كـانت لديك رغـبـة فى أن تكسب كثيرا جدا فأمامك أوكرانيا . . وكل ما تحتاج إليه هو زيارة سريعة لكى تعرف ما الذى تنتجه هذه البلاد وماذا تحتاج إليه من طعام وشراب فى مصر ومن صناعات يدوية وعطور وجلود وسوف تجد فى أوكرانيا استعدادا تاما لأن يجدوا لك شقة . . وليس أسهل من أن تجد لك سكرتيرة عندها الرغبة المؤكدة فى الحياة والعمل والإنتاج . .

وقد ذهب إلى أوكرانيا قليل من رجال الأعمال المصريين . . ذهبوا إلى موسكو أولا . . ومنها قفزوا إلى كييف وعرفوا بالضبط ما الذى تحتاجه هذه البلاد . . والرئيس كوتسا قد جاء إلى مصر كثيرا . وهو يحبها . ويفضلها . ويرى أن التعاون مع مصر أسهل من أية دولة أخرى فى الشرق الأوسط . .

وقد عرفت أنهم يقدمون تيسيرات كبيرة لكل رجال الأعمال المصريين . . ومن المؤكد أن هناك صعوبات . . تماما كالصعوبات الموجودة فى كل دول العالم الثالث ، والدول التى استقلت أخيرا . . أو تحاول ذلك . . وهى تحاول بصعوبة شديدة . لأن الذى ينقصها هو علوم وفنون الإدارة إدارة البنوك والشركات وتحويل الصناعات الثقيلة إلى خفيفة والحربية إلى مدنية والنووية إلى فضائية . ويجب إلا تشغل أنت بذلك ، فهم قادرون . . والمهندسون الذى أبدعوا الصواريخ يقدمون الآن أنواعا جديدة من المحاريث والجرارات والسخانات والثلاجات .

وقد تفاوتت قدرات الدول الشيوعية على التحول إلى السوق الغربية والحياة الأمريكية . . بسرعة تحولت دولتا تشيكوسلوفاكيا . . ويقال المجر كانت أسرع وأجمل . . وروسيا نفسها رغم الصعوبات الهائلة التى تواجهها قد تحولت بسرعة . . وتحسنت أوضاعها وسوف تتحسن أكثر . . ولن تمضى عشر سنوات حتى تستعيد روسيا قوتها التجارية والعلمية والاقتصادية أيضا ففى روسيا كل عناصر القوة والتفوّق . . ولن تعود إلى الشيوعية ، وإنما سوف تبقى أحزاب شيوعية . وهذا هو الذى يخيف الغرب : يخافون أن قويت روسيا ، ويخافون أن انتكست روسيا . . فهم يريدون مساعدتها ولا يريدون . . ولكن ألمانيا الدولة القوية هى التى تبيع وتشترى وتبنى الدول التى كانت شيوعية حتى لا تكون شيوعية ؟!

(١٢)

لم أجد كتابا واحدا بأية لغة أوروبية عن أوكرانيا ، حاضرها ماضيها أو مستقبلها . . . اللهم إلا كتابا واحدا استعرته من السفير حسين شلش . وكان كتابا سياحيا . . عرفت منه أماكن تماثيل لينين . . ذهبت أتفرج على تمثال لينين الضخم . . ووجدت عند قاعدة التمثال باقة من الورد . . . أى أن هناك أناسا يترحمون على أيامه ـ مع أنها كانت أياما سوداء . ولكن بعض الناس يرون أنها أرحم من هذه الأيام . . أو أنهم يفتقدون الرجال من مثل قوته وعظمته . . . أو أنهم يبعثون بهذه الورود تحية إلى الوطن الأم : روسيا : ولكن أحدا فى أوكرانيا لايطيق سماع اسم ستالين السفاح . . وكثير أيضا لا يطيقون سماع اسم جورباتشوف الذى هدم الإمبراطورية الحمراء . ولم يقدم لهم بديلا أو حلا أو وفرة من الهامبورجر والبنطلون الجينز والدولارات ، وإنما الناس أحرار تماما فى أن يلعنوا أى أحد من البيت الأبيض الروسى والأمريكى وبصوت مرتفع . . فلا خوف على أحد من أحد . وقد خرجت الشياطين السود من تحت الأرض تركب السيارات الفخمة وتفرض الإتاوات على الجميع وتشحن البنات الحلوة فى الداخل والخارج . . إلى أى مكان فى أووبا وفى الخليج ، فكل شىء للبيع فى البلاد الصغيرة . . واوكرانيا فقيرة حتى الآن . . لأنها لاتعرف ماذا تفعل بما تملك من الأرض والمناجم والمصانع الروس وكل الأموال تتدفق فى جيوبهم بعيدا عن أصحاب المصالح الحقيقية .

سألت رجل أعمال وهو أيضا أحد رجال المافيا : قل لى من فضلك هل ترى المستقبل أحسن ؟

- مؤكد . .

- المستقبل هذا متى يجىء إن شاء الله ؟

فوضع سيجارا أحسن مائة مرة من سجائرالسفير المصرى حسين شلش بمنتهى القنزحة وقال : لقد جاء !

ونظرت إلى حيث تشير يده فوجدت سيارة مرسيدس فخمة !

ثم عدت انظر إلى السيارة مرة أخرى فوجدت بها عددا من الجميلات الأنيقات . . ولم يكن الرجل فى حاجة إلى أن يفسر هذه (العبوة) المثيرة أو هذه القنبلة النظيفة . . ولا كنت فى حاجة إلى مزيد من العبارة أو الإشارة !

عشق الفراعنة

(١)

لا أعرف كم عدد المرات التى زرت فيها العاصمة النمساوية . ولكنى لا أشعر بالملل . فالجمال والجميل والفن يقضى على الملل والقرف والزهق . . إننى أمشى فى نفس الشوارع . وأقف أمام نفس التماثيل وأصافح الوجوه والأيدى المصرية المكافحة فى الشوارع وبين السيارات وفى المترو تحت الأرض تبيع الصحف وأبو فروة والسجق . . ثم إنهم يضحكون وأولاد بلد .

وفى كل مرة أسافر إلى المدينة الجميلة أو مدينة الجمال والجلال والموسيقى وعبادة كل ما هو فرعونى اكتشف شيئا جديدا أو أعرف شخصية لم أكن قد عرفتها وأجد أن المتعة فى الجديد ومع الجديد هى المكافأة السخية التى أستحقها . . والتى تغرينى بأن أعود إلى فيينا . . وحياتك لا شىء فى هذه الدنيا يساوى وجع القلب والدماغ الذى نعانيه فإن وجدت فرصة للراحة فى أى مكان فلا تتردد ، وأن وجدت مناسبة للنسيان فلا تتردد . . سواء فى فيينا أو فى لندن أو فى باريس أو فى الغردقة أو شرم الشيخ . . فأنت وحدك يجب أن تبحث لنفسك بنفسك عن بقعة فى الأرض أو ثقب فى الحائط تجىء منه الراحة والضوء وإذا لم تفعل ، فلن يتبرع أحد بذلك صدقنى .

تريد منى نصيحة جاءت متأخرة جدا لاتتعجل أى شىء.. حاول أن تدوس فرامل على كل شىء فى حياتك اليومية.. فلا ضرورة للاستعجال أنت مهم جدا لنفسك.. مهم قليلا للناس. أو لا أهمية لك. ولكن أنت أهم إنسان فى حياتك. فحاول أن تأكل على مهل وتشرب على مهل.. وتمضغ على مهل.. والباقى سوف تقوم به الغدد فى جسمك.. قد لاتجد لهذا الكلام معنى ممكن ولكن سوف تتذكره حتما عندما تتقدم بك السن وعندما تهتز الصحة والفلوس والوقت.. فالذى يتعجل كل شىء فإنه يعيش عمره أو نصف عمره.. أما الذى يتمهل فهو الذى يعيش العمر الواحد مرتين وثلاثا.. صدقنى.

وفى عالم الحيوان: نجد أن أكثر الحيوانات بطئا وأقلها حركة هى أطولها عمرا.

(٢)

ما الذى تفعله العاصمة النمساوية من أجل مصر ؟ ما هذه العظمة ؟ ما هذه الأبهة ؟ ما هذه الدراسات الجادة والكتب الفخمة والصور الرائعة والمعارض التى لانظير لها فى أية عاصمة أخرى ؟

هذا العام أقامت النمسا معرضا فرعونيا رائعا . موضوع هذا المعرض (أثر الحضارة المصرية القديمة فى كل الفنون المعاصرة من ١٧٣٠ حتى سنة ١٩٣٠) . . ماذا أحدثه الفراعنة فى النحت والتصوير والخزف والصينى والأثاث . . سوف ترى فى هذا المعرض أعماقا سحيقة للفنان الفرعونى : للفيلسوف والطبيب والكاهن . . وسوف ترى أيضا كيف اكتشف هيرودوت مصر وشامبليون ونابليون وكارنر فون . . وإذا كانت مصر هبة النيل ، فإن مصر الفرعونية هبة فرنسا . فلولا شامبليون واكتشافه لحجر رشيد ما عرفنا هذا التاريخ الفرعونى كله . . فقد ظلت الأهرام وأبو الهول تجسيدا رائعا لما لا نعرف . . حتى جاء شامبليون وفك طلاسم اللغة الفرعونية . . فعرفنا مالم نكن نعرف . . كنا ننظر إلى الاهرامات ولا نراها . . فأصبحنا الآن نراها ولنا رأى فيها .

والعاصمة النمساوية تؤكد لنا كل عام شيئا جديدا فرعونيا لم نكن نعرفها . هذا المعرض الذى أقامته النمسا عن الحضارة الفرعونية من أروع ما رأيت فى حياتى . . وقبل ذلك أقامت النمسا

معرضا عن الإله والإنسان . . ولو وجد علماء النمسا ذراع تمثال أو عين تمثال قديم لأقاموا له معرضا ثم متحفا . . هذه المعارض تساهم فيها الشركات وفى مقدمتها شركات الطيران . . إن الدولة لا تدفع إلا القليل ولكن الشركات تدفع الكثير جدا . وليست لنا ـ نحن أبناء الحضارة الفرعونية مساهمة من أى نوع . . لا قليل ولا كثير فى حفلات التكريم التى تقيمها النمسا لاجدادنا . . إنهم يرون أن الحضارة الفرعونية هى تراث الإنسانية كلها . . وأن الدول التى تدرك خطورة الحضارة وأثرها وتواصل العبقرية الإنسانية ، مسئولة كلها عن ذلك ، فالحضارة الفرعونية عاشت وماتت فى مصر ، ولكنها لم تمت فى الدنيا من حولنا . . وفيينا أكبر دليل على ذلك !

(٣)

فى يوم افتتاح معرض (عشق مصر الفرعونية) أقاموا حفلة موسيقية . . فكل شىء هنا يبدأ بالموسيقى . الأفراح والمآتم والمعارض والندوات . .

وهذا طبيعى فى بلد عاش فيه عباقرة الموسيقى : موتسارت وجلوك وهايدن وبتهوفن وشوبرت وبرامز وبروكنر وفولف ومالر ويوهان اشتراوس الأول والثانى وريتشارد اشتراوس وبتسرد فاجنر - ثم تجىء محاضرة طويلة . لابد أن يتحدث أحد وأن يقول ويشرح . فالمسألة علمية جادة . ويطول الكلام ساعة وراء ساعة وتتخللها الموسيقى . . وننظر إلى وجوه الناس . لا شىء إلا الاهتمام الشديد . فالموقف جاد وخطير . والناس كلهم جادون ويحترمون كل ما هى علمى مدروس . . لا أحد يتململ فى مقعده . ولا أحد يتثاءب . ولا أحد يحاول أن ينقل عدوى الملل إلى الآخرين ، فيتكون رأى عام بسرعة ضد المتحدث أو ضد المناسبة التاريخية الفنية .

وبعد ذلك يتجه الناس إلى حيث المعرض . وهذا المعرض ومعارض أخرى رائعة أعد لها رجل وأحد عاشق لكل ما هو مصرى قديم ، هو البروفسور فلفريد سايبل .

واننى أقترح على الفنان وزير الثقافة فاروق حسنى أن ينتهز أقرب فرصة لتكريم رجل عالم باحث عاشق يستحق جائزة أو وساما أو حفلة تكريم ، أو أن يقال له شكرا فى خطاب رسمى . .

فهو لم يكتف بأن أقام معرضا جمع مفرداته من كل متاحف الدنيا ـ وإنما أتى بالباحثين والعلماء من كل جامعات أوروبا وأمريكا . . ثم أصدر كتبا فى ألوف الصفحات الأنيقة الفخمة تقول وتشرح وتمتع . . وكلها حفلات تكريم لمصر الفرعونية (كلام فى سرك ٩٩٪ من المصريين فى فيينا لم يروا ولم يسمعوا عن هذا المعرض رغم المسلة الفرعونية التى أقاموا أمام باب المتحف وتنويرها بأشعة الليزر من فوق إحدى الكنائس !!) .

والداخل مبهور والخارج أكثر انبهارا . فكل شىء تحفة فنية والمعرض كله من صنع العالم والفنان والمهندس والعاشق . . فلا يبقى إلا أن تدخل فى الزحمة وتقف إلى جوار أى تمثال ليتأكد الزوار من أنك مصرى !

(٤)

قبل أن تذهب إلى حيث أقيم معرض لأثر الفن الفرعونى فى الثقافة العربية ، سوف تطالعك مسلة صنعوها للفت العيون والأقدام إلى هذه الأبهة التكنولوجية فى عرض أثر الحضارة الفرعونية فى الفنون الأوروبية . . ولقد استخدموا الضوء والظلال والأرض والسقف والزوايا حتى أصبح كل شىء أمامك مجسدا . . . ثم أنهم زودوا كل زائر بسماعات يضعها على أذنيه فلا يكاد يقترب من الباب حتى تسمع من يحدثك عن الذى سوف تراه فى هذه القاعة . ولا تكاد تقف أمام أى أثر حتى يحدثك فى أذنيك ما المعنى ومتى وكيف ؟ فإذا كان الزائر لا يسمع فإنهم يزودونه بشاشة تليفزيونية يتنقل ويقرأ عليها معنى الأثر الفرعونى أو التحفة الحديثة التى أمامه . .

وفى إحدى القاعات فيلم يعرض عليك كيف اكتشف الإنجليز مقبرة توت عنخ آمون . . . كيف حدث وكيف كانوا يأكلون ويشربون وينامون . . أى تعب . . أى عذاب . . أى إصرار . . أى جمال وفخامة كانت النهاية !

وهذه اللوحات أتوا بها من كل متاحف الدنيا لتساهم فى المعنى الذى أراده البروفيسور فلفريد سايبل . .

ثم هذه الفناجين والأطباق والأكواب التى حرص نابليون على أن يأخذها معه إلى منفاه فى جزيرة سانت هيلانة . . . فعلى هذه

الأكواب صور ونقوش فرعونية بديعة . . لقد استوحاها الذين صنعوها من الحضارة الفرعونية . . . فنابليون عنده هذا الشعور العميق بأنه اكتشف مصر الحديثة - وليس غريبا أن يكون عبقرى الحرب هو عبقرى السياسة والقانون والتذوق الفنى . حتى ولو كان فى منفاه . فإذا كان النفى إذلالا له ، فإن الفن قد تسامى به إلى القمة . .

وبسرعة خرجت من المعرض . . من المتحف . . فقد عرفت ما كنت أريد . . وفى اليوم التالى عدت لكى أتذوق على مهل . . وأتفهم على راحتى . . وعندما خرجت من الباب العريض العالى خرجت بجانب من الجسم وأحنيت رأسى . . فقد ضاعف المتحف من طولى وعرضى وقد حاولت جاهدا أن ألفت الأنظار إلى أننى من أصل فرعونى . . ولا أعرف بالضبط ما الذى أضفته إلى ملامح وجهى . . ولكن قد كان ذلك شعورى !

(٥)

وأعطيت أذنى لحكايات مصرية . . فهذا الرجل اسمه مجدى سليم بلدياتى . ذهب من سويسرا إلى النمسا . فقد أصيب بشلل الأطفال وهو صغير . وهو الآن كتلة من الحيوية والذكاء وخفة الدم . وقد تزوج من نمساوية من عشرين عاما . وأقام سلسلة من مطاعم البيتسا يديرها هو وأخته .

وتستطيع أن تعرف ما هو الفرق بين المصرى واللبنانى ؟ فاللبنانيون تجار شطار . وأحسن من يقدم الخدمات فى أدب وظرف ونظافة وأناقة . فأنت تدخل المطعم اللبنانى لتجد أكثر الرواد من لبنان ومن مصر . ولايوجد لبنانى واحد يستريح ضميره إذا أكل فى مطعم ليس لبنانيا . . أنا لم أر شيئا من ذلك فى كل العواصم الأوروبية وقد زرتها جميعا . بينما تجد المطعم المصرى لايتردد عليه إلا عدد قليل جدا من المصريين ؟! وإذا أعطيت أذنك إلى واحد مصرى فأنت تعرف ماذا سيقول مقدما . سوف يشتم لك صاحب هذا المطعم ويقلل من الجهد الذى بذله . . ومن أمانته وإخلاصه ! لماذا ؟ أنت تعرف السبب . .لأن هذا ما يحدث فى مصر أيضا !

فى استراليا دخلت مطعما مصريا وجلست وأعجبنى المكان والنظافة والنظام . فتطوع واحد ابن حلال وقال لى : المطعم الأجمل فى الناحية الأخرى . . ولم يكن المطعم الذى أشار إليه مصريا . وتمسكت بالمقعد والترابيزة وتمنيت أن أقلب الطعام فوق دماغه !

أعط أذنك لواحد لبنانى ثم أسأله عن رأيه فى المطعم اللبنانى وصاحبه والعاملين فيه والمترددين عليه . . وعن طعامه وشرابه وموسيقاه . . سوف تسمع شعرا فى مديح هؤلاء جميعا !

والمصريون الذين يطفحون الدم هنا ويسفون هناك تراب الخليج معهم حق فى الهجوم على الدكتور الرزاز . ولا يمكن أن يوافق أحد على فرض ضرائب على المصريين العاملين فى الخارج الذين يوفرون لمصر طعامهم وشرابهم ثم يبعثون بأموالهم لاستثمارها فى بنوك مصر . . فبدلا من تشجيع المصريين على الخروج من مصر ، فأننا نقف إلى جانب الزمان ضدهم . . وإلى جانب (الكفيل) وهو الرجل الذى يضع السلاسل فى أيديهم وأرجلهم ـ أنه عار قومى !

فبالله عليك كم كسبت مصر من وراء فلسفة د . الرزاز ؟ لم تكسب إلا مئات الألوف وكان الرزاز يحلم بمئات الملايين أو عشرات البلايين التى أخفاها المصريون فى بنوك العالم بعيدا عن مصر . . وإلى الأبد !

صوت شادية !

شيء عجيب في صوت شادية . . إنها اخف الأصوات دما ، وشادية نفسها من الطف الناس ومن أقدر الممثلات . .

ففي سنة ١٩٥٩ كنت في جاكرتا . . ودعاني د . أحمد رضوان المستشار الثقافي والذي صار بعد ذلك نقيبا للمعلمين وزميلا في مجلس الشورى لحضور امتحان الطلبة الإندونيسيين المسافرين للدراسة في الأزهر . . فهو عادة يسألهم إن كانوا يحفظون شيئا من القرآن الكريم . . أو الأحاديث النبوية . . ولكن طالبا أضاف إنه يحفظ بعض الموشحات فطلب إليه د . رضوان أن يسمعنا فراح يغني : ٥ × ٦ بتلاتين يوم - وهي أغنية شادية !

فهو يتصور أن كل ما يذاع من مصر هو قرآن وأناشيد دينية . وكذلك كانوا يتصورون أن الأفلام كلها دينية . . وبعضهم كان يدخل السينما بعد أن يخلع الحذاء . .

وأمس ذهبت أتفرج على معرض للهكسوس في مصر . . وكلها آثار مستعارة من متاحف مصر والمتاحف العالمية . . وأراد المشرفون على المعرض أن يعطوا للمعرض مذاقا مصريا فكانوا يذيعون بعض الموسيقات المصرية والإيقاعات على الطبلة . . ثم أغنية شادية : يالله تعالى قوام يا لله !

وفى الطريق إلى الفندق وفى سيارة فوزى متولى رجل الأعمال المصرى الذى أقام لنا أوبرا عايدة قبل ذلك فى الأقصر . . قال لى:
تحب تسمع كلام فارغ يريح الدماغ هلوسة كلامية وشوشرة موسيقية . .

قلت : لا . .

قال : إذن أسمعك شيئا لايمكن أن ترفضه . . شادية !

وغنت شادية : اتعودت عليك !

وفى طريق عودتى إلى القاهرة كانت الطائرة المصرية الكبيرة ٧٦٧ تعبر أجواء يوجوسلافيا وكانت العواصف شديدة جدا . . وكانت الطائرة تنشال وتنهبد ونحن نتشبث بمقاعدنا . . والفيلم الذى نراه لطفل سرقوه وراح يحبو هاربا منهم تحت عجلات السيارات وفى مصانع الحديد والصلب وفى حديقة الحيوان . . والفيلم مخيف ومقلق وليس مريحا ولا ممتعا فى سماء يوجوسلافيا فاغمضت عينى وغيرت المحطة فطلعت شادية تقول : قولوا لعين الشمس . .

عين الشمس إيه يا شادية . . نحن فى عين العفريت الذى يريد أن يظلط الطائرة بمن فيها . . وعندما تجاوزنا منطقة العفاريت . . عدت إلى شادية اسمعها تغنى لبليغ حمدى يا اسمرانى اللون - الله يا شادية !

أقصى أفريقيا

(١)

أمسكت ورقة وقلما لكى أكتب المعلومات السريعة عن هذه الدولة الشقيقة الشقية أيضا . إنها فى أقصى الجنوب عند ملتقى المحيطين الأطلسى والهندى . وأقصى طرف لها اسمه (رأس الرجاء الصالح) ـ أى كابود بونيو اسيرانسه وكان قبل ذلك اسمه (رأس العواصف) ـ أى كابو تورمنتوزو باللغة البرتغالية وهى لغة الذى اكتشفه سنة ١٤٨٨ واسمه بروثلميو دياس . . وفى هذه البلاد الذهب والماس واليورانيوم والبلاتين ومعادن أخرى كثيرة . . وعندهم العلوم النظرية قد تطورت حتى أنهم فجروا أكثر من قنبلة ذرية . أما الأسماء التى تجيء على البال فورا فهى أن من أبنائها الفيلسوف الجنرال اسمطس صاحب نظرية لاتوجد فى الكون جزئيات وإنما كليات وقد اشترك الزعيم البريطانى تشرشل فى حرب البوير ـ أى حرب الفلاحين الهولنديين من أجل استعمار هذه البلاد . وأقام الزعيم الهندى غاندى بعض الوقت فى جنوب أفريقيا . ومن بين الأسماء البروفيسور برنار وهو أول من أجرى عملية زراعة القلب . وكانت ناجحة . وقد أدى به النجاح إلى أن صار عالما دلوعة حليوة يتزوج كل سنة فتاة دون العشرين ـ عملها

خمس مرات ! وقد تكاثر المهاجرون على هذه البلاد من هولندا ثم جاءها الهاربون الفرنسيون وأقاموا فيها أول مزرعة للنبيذ . . ثم جاء الألمان والإنجليز . وأقام الألمان فى غرب أفريقيا فى الدولة التى أصبح اسمها ناميبيا التى تحررت هى الأخرى من سيطرة جنوب أفريقيا . . وهذه البلاد بسبب ثرواتها وجوها وموقعها خليط هائل الأجناس البيضاء والملونة والأسيوية والزنجية . ولم يتحرر الشعب الأفريقى من الاستعمار إلا أخيرا بعد ٣٥٠ عاما من الاستعباد والهوان . . العملة فى هذه البلاد اسمها (راندا) أى الحافة . . . والراند يساوى الجنيه المصرى بالكمال والتمام . . وكلاهما قليل القيمة هنا وهناك ! ويرأس هذه البلاد الزعيم الأفريقى مانديلا الذى سجنوه ٢٧ عاما . . والرجل الذى هو نائب مانديلا كان رئيسا للبلاد قبل ذلك . . وخرج مانديلا إلى الدنيا لتسارع السيدة الفاضلة زوجته فتمسح به الأرض وتمرغ شرفة فى الوحل وتجد لها أنصارا وأتباعا يحلمون بأن يجلسوها على نفس المقعد الذى شرفه مانديلا ؟! وعندنا سفيرة ناجحة وكانت ناجحة أيضا فى تشيكوسلوفاكيا . واسمها السيدة مشيرة خطاب . هذه هى كل معلوماتى مضافا إليها أن البلاد مرتفعة عن البحر كيلو مترا ونصف الكيلو متر . فشتاؤها ليس باردا وصيفها دافىء وتقع على نفس خط طول القاهرة ـ ولذلك لا فرق فى التوقيت بين رأس محمد ورأس الرجاء الصالح !

(٢)

هناك مثل يقول : إذا لم يأت الجبل إلى محمد ، ذهب إليه محمد . .

فإذا لم يأت السياح إلى مصر ذهب ممدوح البلتاجى إليهم . . وعلى الرغم من أنهم يجيئون بمئات الألوف وسوف يعودون . فما الذى يمنع أن نذهب إليهم وإلى غيرهم . وأن نفتح عيونهم وآذانهم علينا . . ومصر ليست مجهولة تماما لكل الدنيا . ولكن ما حدث فى مصر من تطورات تحتاج إلى أن نقدمها للناس . وما وقعت فيها من دماء يجب أن نوضحها للناس وأن نعطيها حجمها الحقيقى . فإن كان إرهابا ، فمصر أقل من أمريكا . . وإن كان تعصبا دينيا ، فهو أقل كثيرا جدا من أيرلندا . . وإن كانت جرائم عادية فالذى يقع فى مصر سنويا أقل مما يقع فى مدينة شيكاغو وحدها . . والجرائم التى وقعت فى مصر فى عشرات سنوات أقل من الذى جرى دمه على شوارع جنوب أفريقيا فى سنة واحدة !

ونحن ندعو إلى بلادنا فى محبة وسلام . ندعو إلى تاريخنا وإلى مجدنا وإلى ثقافتنا . ونبيع ونشترى ونصدر ما أبدعت مصر فى كل العصور . فإذا جاء الناس إلى بلادنا قدمنا لهم منتجات مصر : الخدمات فى الشوارع والفنادق والتليفونات والمستشفيات والمسارح والمطاعم . . ولابد أن نلفت أنظار وأسماع الدنيا حولنا . . ففى الإسلام مساجد لها مآذن . . تنادى للصلاة خمس مرات كل يوم . . ولابد من أن نؤذن وأن ندق الأجراس وخشبات المسارح

ندعو إلى مصر . . هذا واجب الدولة بكل أجهزتها . . فليست السياحة وزارة . وإنما هى تجارة وصناعة . وأكبر مصدر لكل موارد الدولة .

وعندما يذهب د . ممدوح البلتاجى إلى أى مكان يدعو إلى مصر . . فهو شخصيا «عينة» لوزراء مصر . . إذا تحدث وإذا أكل وإذا شرب وإذا ناقش فى السياحة والسياسة . والناس ينظرون ويحسبونها . . إذن كل وزراء مصر من هذا الطراز المحترم المثقف الفصيح الذى يعرف ماذا يقول ولمن يقول . .

وإذا رافقه وفد من خبراء السياحة فهم أيضا طراز لرجال الاقتصاد السياحى والسياسة السياحية والأمن السياحى . . وهنا يشعر الناس الذين نفتح لهم بلادنا بأن بلادنا يديرها ويحرص عليها ويدعو لها رجال من هذا الطراز . .

فلنذهب ونتفرج ونتأكد ـ هكذا يقولون . . ولن يخيب ظنهم !

(٣)

ويختصرونها إلى جوبرج أى مدينة الذهب . . أو المدينة التى قامت حولها جبال الذهب التى يمكنك أن تراها من فندق (صن) فنجد رمالها صفراء فى ضوء الشمس . وفندق (صن) هذا أنيق جميل وتحته أكبر سوق لبيع أى شىء بأعلى الأسعار ـ تصور أننى اشتريت عشرين كتابا متوسط الحجم بألف جنيه ! يا عينى على مؤلفينا الذين يطفحون الدم فإذا كان ثمن الكتاب خمسة جنيهات سرقه بعض رواد المعارض الدولية . أما إذا كان ثمنه عشرين أو ثلاثين فلا حل إلا أن يذهبوا للمؤلف ليحصلوا عليه مجانا ـ والله العظيم ثلاث إننى اشترى من مؤلفاتى بألوف الجنيهات سنويا لكى اقدمها هدية للشبان العاجزين عن شرائها ـ ويسعدنى ذلك !

ولأن مدينة جوبرج قامت من أجل هدف واحد . فلا تزال تعيش على هذا الهدف . وهى مدينة أمريكية لا شخصية لها . ليست لها ملامح خاصة . وإنما هى ذات شوارع واسعة نظيفة مخططة أبيض وأصفر . وبها ناطحات سحاب . . ولا فرق بينها وبين اية مدينة أمريكية . أذكر أننى كنت أسير فى شوارع مينة سيدنى باستراليا . وفجأة فقدت الذاكرة . فلم أعرف أين أنا . . هل فى أوروبا أو فى أمريكا . ووقفت فى الشارع أنظر إلى اللافتات . لم اعرف . وكان اصرارى شديدا على أن أستعيد ذاكرتى . ولم أفلح . ورفضت أن أسأل أى أحد . . والا اتهمنى بالجنون . ووقفت طويلا . ولم اعرف . وكان لابد أن أمضى لأقرأ اللافتات ومن

المؤكد إننى سوف أجد لافتة واحدة يكون عليها اسم المدينة . وأخيرا وجدتها . فكذلك فى شوارع جوبرج . يمكن أن يحدث لك نفس الشىء فى مدينة الرياض عاصمة السعودية ـ لولا الكلمات العربية والجلاليب . فهى الأخرى مدينة أمريكية . .

سألت سيدة أوروبية : من فضلك أين دار الأوبرا ؟

وضحكت . وعرفت أنه لاتوجد دار للأوبرا ولا مسرح ولا متحف للفن . . لا شىء له علاقة بالذوق الرفيع . فهى مدينة تجارية . وأهلها مثل أهل نيويورك . . مشدودون من أنوفهم ومن رموش عيونهم إلى الإمام . . أى إلى البورصة إلى مناجم الذهب والعودة منها . أما إذا أراد أى سائح أن يكون مختلفا فعنده فرصة وحيدة وهى أن يكون وحشيا وذلك بأن يذهب إلى أحط الحانات ويفقد وعيه وفلوسه ويبحث عن واحد ينقله إلى الفندق أو المستشفى !

(٤)

وإلى جوار مدينة الذهب توجد مذبحة أو مهزلة أو مأساة الزنوج . أهل البلاد . إنهم يعيشون فى عزلة تامة فى مدينة اسمها (سوينو) . . البيوت من صفيح أو خشب . وفيها قصور ولها حمامات سباحة وبنات أبنوسية اللون وغزلانية القوام والعيون . إنهم أغنى الأغنياء الذين يجدون متعة فى تعذيب أهليهم من السود وذلك بالإقامة بينهم والتعالى عليهم . .

ولم أفلح فى إقناع السائق أن يدخل هذه المدينة ورفض أن أناقشه وأن أقنعه . وكاد يقول لى : السيارة أمامك ادخل أنت وأدى ذقنى لو عرف لك الذباب الأزرق مكانا !

ولم أجد سببا وجيها لتحدى الذباب الأزرق ! واكتفيت بالنظر من بعيد لبعيد . . صحيح لم يعد هناك حاجز بين البيض والسود . ولكن الحاجز نفسى عميق عمره ٣٥٠ عاما . . فلا يزال الرجل الأبيض هو السيد وهو الحاكم حتى لو كان نائبا للرئيس وللوزير أيضا . ولو أعطيت البلاد لأهلها لانتقلت جنوب أفريقيا إلى العالم الثالث بكل جدارة وحقارة . . البيض يقولون ذلك !!

ولا تشعر حكومة جنوب أفريقيا وهيئاتها السياحية بأى حرج حين تنبه السائح فى كل مطبوعاتها وكتبها إلى أن فى البلاد ملاريا وتيفودا . . ثم أنها نبهت الناس إذا ساروا بين الأعشاب أن يرتدوا الأحذية والبنطلونات الطويلة . . ففى الأعشاب ثعابين لا تميت بسرعة . ثم ذكرت الاحتياطات الواقية حتى الحصول على

الترياق الذى يقاوم السموم . . ونشرت أيضا أن هناك نوعا من العلق يلتصق بالجلد . . وبعضه ضار . ولكنه ليس مميتاً . . وحذرت من الإصابة بالزهيرى والسيلان والإيدز المنتشرة فى البلاد . . وشرحت كيف الوقاية وكيف العلاج المؤقت والعلاج الطبى بعد ذلك .

كل ذلك موجود فى كل النشرات السياحية . وجنوب أفريقيا لا تخفى رأسها فى الأعشاب كالنعام . .

وفى مزرعة النعام المجاورة صححوا معلوماتى عن النعام . . فهو لا يخفى رأسه فى الأرض ظنا بأنه قد أخفى جسمه الضخم . المعلومة خطأ . صحيح أن النعام عقله صغير جدا وعبيط . ولكن النعام يعيش بين الأعشاب الطويلة . ولكى يأكل لا بد أن يضع رأسه بين هذه الأعشاب . . وكذلك لكى يحصل على الأملاح فى الأرض رغم أنه من المعروف أن معدة النعام بها أحجار كثيرة تساعده على الهضم !

ولكننا نحن الذين نخفى رءوسنا فى كل المواقف الحرجة . .

(٥)

لايمكن ألا أن تبدى إعجابك الشديد بالسفيرة المصرية مشيرة خطاب . فهى على علم تام بما يجرى فى هذه البلاد . . وكذلك المستشار حسنين محمد سالم قد درس البلاد وتعمق وفهم على استعداد لأن يفيد أى رجل أعمال مصرى أو أى سائح إلى هذه البلاد .

وتحدثت إلينا السفيرة مشيرة خطاب . كل شىء عندها واضح تماما . وهى عظيمة الأمل فى رواج سياحى بين مصر وجنوب أفريقيا . فهم يحبوننا ويعجبون بنا . وكل الساسة والزعماء لهم ذكريات فى مصر قديما وحديثا . والطريق إلى مصر سهل . أنه رحلة بمصر للطيران فى ثمانى ساعات ليلا . الرحلة هادئة ناعمة والخدمات فى الطائرة ممتازة وأسعار التذاكر رخيصة . .

وفوجئنا بأن السفيرة المصرية قد أعدت لنا لقاء مع خمسة من الوزراء الواحد بعد الآخر ؟! وهنا لايعرفون (القيلولة) تماما كالإنجليز فى بلادهم على عكس أبناء البحر المتوسط . ولذلك جاءت المواعيد قبل الغداء وبعده مباشرة . ولابد من القهوة المرة حتى لانتساقط من الأعياء . وكانت السفيرة أسبقنا إلى المصاعد وإلى الوزراء . . وكل وزير تقول عنه : إنه مهم جدا . وإنه وإنه . . معلومات لا أول لها ولا آخر !

وفى ذلك اليوم أطلقت عليها لقب (المشير خطاب) . وعرفت من هيئة السفارة المصرية أنهم كانوا حائرين فى البحث لها عن

اسم . وأنهم وجدوا الاسم ، فهى جادة صارمة . ولكنها فى نفس الوقت فى غاية الذوق والأدب وأنها تشجع كل من أحسن عملا . .

وقلت : يا سيادة المشير فى عرضك . . اعطنا بعض الوقت لكى نفكر !

وكان لقاؤنا بالوزير بوتا وزير الطاقة وهو أفريكانى أبيض وكان قبل ذلك وزيرا للخارجية ١٧ عاما . وهو رجل لطيف وظريف . . وقد بدأ حديثه الينا بالاعجاب بمصر وبالمهندس ماهر أباظة وأنه سوف يتعلم منه توليد الطاقة وبيعها للجيران . فكرة جهنمية !

ورأيت في هذا اللقاء كيف يمكن أن تتغير وجهة نظر دولة من أولها لآخرها فقد عرض على د . ممدوح البلتاجى قضية سياسية . وكان مقنعا فى شرحها . ولكن رأيت د . ممدوح البلتاجى بفصاحة وحجة قوية قد أقنع الوزير الافريكانى بشىء آخر . واعترف الرجل بأنه لم يكن يعرف كل ذلك واعترف بأن هذا الحوار جعله يقف إلى جوار مصر . وشكره على ذلك وشكرناه على تواضعه وعلى مرونته . وتغيرت سياسة دولة فى جلسة واحدة !

وقلت للمشير خطاب : سيادة المشير هذا اللقاء الممتع مع هذا الوزير يغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر !

(٦)

حكاية واحدة سمعتها من دى كلرك نائب رئيس الجمهورية وسمعتها من بوتا وزير الطاقة ومن وزير السياحة فى جوهانسبرج . .

أنهم سعداء بهذا الحلم الذى تحقق ولم يكن أحد يحلم بأن تكون المسافات بيننا قصيرة إلى هذه الدرجة . .

كل واحد قال وبنفس الألفاظ إنه وهو صغير كان يسرق علب السجائر من والده ويدخنها سرا وكانت السجائر اسمها (من ك إلى ك) أى من مدينة كيبتون إلى كايرو . . أى أن صاحب السجارة يحلم بأن تكون هناك صلة تجمع بين مصر وجنوب أفريقيا . . كان يحلم بالدولة الواحدة . . أو بالوحدة بين كل دول أفريقيا تحت العلم البريطانى . . أو يحلم بخط حديدى بين مدينة الكيب أى رأس الرجاء الصالح وبين مدينة القاهرة .

وهم سعداء بأنهم عاشوا حتى تحققت هذه المنية . . فالطريق إلى كايرو وكيبتون أصبح ممكنا . سهلا تقطعه الطائرة ليلا فى ثمانى ساعات وبلا توقف . .

فقلت إن الاسرائيليين عندهم نكتة . . هم يقولون سيدنا موسى - عليه السلام - كان يتعلثم . . إما لأنه لم يكن يعرف اللغة العبرية فاحتاج إلى أخيه هارون لكى يترجم له من الفرعونية إلى العبرية والعكس . . أو أنه لم يكن فصيحا . . ويقول الاسرائيليون : أن موسى - عليه السلام - كان يقول كاكا . . كاكا .

ويقولون : ولم نكن نعرف ألا أخيرا جدا أنه كان يقصد كايرو !

ولابد أنهم قالوا أن موسى – عليه السلام – عندما كان يقول : كاكا كان ينصحهم بالذهاب إلى كيبتون . حيث يبلغ عددهم ١٥٠ الفا يملكون الألماس والذهب ووسائل الاعلام وتجارة السلام .

المسلمون نصف مليون . .

وحكايات أخرى عن أيام سعيدة أمضاها الصحفيون والوزراء فى الصعيد . ولكن أكثرهم ـ مع الأسف ـ لم يشاهد روعة الغردقة وشرم الشيخ وقد انتهز عدد من أصحاب القرى السياحية فوجهوا إليهم الدعوات بإجازات طويلة : ومن بينهم الحمدى حويدق رائد القرى السياحية فى الغردقة . . ومحمد نسيم دعاهم إلى شرم الشيخ . . وأصحاب قرى أخرى وجهوا دعوات إلى آخرين وبمنتهى الصدق والحرارة !

وكذلك دعاهم محمد فهيم ريان رئيس مصر للطيران ذهابا وإيابا . .

وقد أعلن كثيرون أنهم ليسوا فى حاجة إلى دعوة وأنهم قادمون إلى وطنهم الثانى فى شمال القارة ـ شكرا . .

(٧)

تستعد البلاد لكأس الرجبى العالمية . أنها تنتظر أربعين الف سائح لمدنها الحديثة : جوهانسبرج العاصمة التجارية وبريتوريا العاصمة السياسية وكيبتون العاصمة التشريعية . .

وأمام مجلس الوزراء مشروعات بناء عشرات الفنادق خمس نجوم استعدادا للدورة الأوليمبية عام ٢٠٠١ . والعالم كله يتجه بسرعة إلى جنوب أفريقيا . . حيث الأسواق مفتوحة والأرباح مضمونة والرخاء قادم والرواج على كل الأبواب . .

بعض الدول العربية لها نشاط ولكن ليس كنشاط مصر التى يحبها الناس ويقدسون ماضيها ويحترمون حاضرها . فقد جاء الرئيس زين العابدين بن على رئيس تونس . . وغدا سوف يجىء رؤساء عرب آخرون . ففى هذه البلاد خيرات وصناعات وقدرات وأبواب ونوافذ وأسواق لكل ما خلق الله وصنع الإنسان . . ويجب أن نبادر وبسرعة فالطريق أمامنا مثل أذرع الناس مفتوحة . .

ما الذى نريد منهم ، وما الذى يريدون ؟ ماذا نشترى وماذا نبيع؟

الميزان التجارى ضعيف جدا . ولكن من الممكن أن يكون لصالحنا نحن أو لصالحنا جميعا . المهم أن تكون هناك خطوة . وأن تكون سليمة . وهذه خطوتنا الأولى وهى سليمة أيضا .

ومع الوفد السياحى الرسمى جاءت فرقة سمير صبرى ولايزال هو الفنان الوحيد فى الشرق الأوسط القادر على أن ينعش

المشاهدين ويشركهم معه ويشغلهم ويثيرهم ويضحكهم . فيخلعون جاكتاتهم ويرقصون . .

تصور أن رئيس الوزراء راح يرقص ساعة ـ هل يمكن أن تتصور د . عاطف صدقى يرقص عشرة بلدى . . بلاش عشرة . خمسة بلدى ؟! رئيس وزرائهم رقص عشرة وعشرين . . ومن بعده جاء وزير السياحة ورقص طويلا . رئيس هيئة تنشيط السياحة الأفريقى رقص وصفقنا له وضحك وضحكنا . المعنى إيه ؟ إنها البساطة فى المشاركة . فليس الرقص والفرفشة فعلا فاضحا يجب أن نعتذر عنه ـ ولكنها (عقدنا) التى لا حل لها ولا علاج !

فما الذى قدمه سمير صبرى ؟ قدم فنونا مصرية ورقصا شرقيا ثم إنه ظريف لطيف محبوب وهو قادر على الحديث بالإنجليزية والعربية . . فقد عرض منظرا محترما من مظاهر الفنون الاستعراضية المصرية . . طبعا ليست كل الفنون الموسيقية والغنائية والمسرحية والسينمائية ولكن عينة لذيذة منها . . . وبالمناسبة كان فشلنا سحيقا عندما عرضنا فى هذه البلاد بعض الأفلام المصرية التى لاتمثل مصر وإن كان تسىء إليها . . وبعثنا بممثلين لايعرفون الإنجليزية فلا حوار بينهم وبين أحد . لماذا ؟ لا أعرف !

(٨)

هذه هى المدينة . أجمل أفريقيا . أما الجمال فطبيعى . والجبال طالعة والوديان نازلة والقمم لا عدد لها . . طبعا الشوارع فى غاية النظافة والجمال والمرور فى قمة الانضباط . . وليس فى مصر من أسوان إلى دمياط شارع واحد ناعم مرصوف ومدينة القاهرة هى المدينة الوحيدة التى ليست بها أرصفة . . والناس مطالبون بأن يمشوا على الرصيف الذى لا وجود له ، ولا يمشون فى الشوارع التى ضاقت بالسيارات . . ومن العجيب أنه جاء على القاهرة حين من الدهر كان الناس يعاقبون لأنهم يمشون فى الشارع ؟!

وبالمناسبة وقف أحد اللصوص أمام القاضى واضعا يده فى جيبه فشخط فيه القاضى قائلا : طلع إيدك من جيبك يا قليل الأدب ! فقال الحرامى : يا افندم أنا احترت إذا وضعت إيدى فى جيبى فأنا قليل الأدب وأن وضعتها فى جيوب الناس فأنا حرامى . . فأين أضعها ؟!

والجواب : على الحائط . . تماما كما هو مطلوب من سكان القاهرة أن يزحفوا على الجدران ما دامت لا شوارع ولا أرصفة !

فكل الذى لاتجده فى القاهرة سوف تجده فى هذه المدينة الفاتنة ذات الهواء المتجدد من المحيطين الأطلسى والهندى . . والبلاد لأنها مرتفعة ألف متر عن سطح البحر ، فالأوكسجين فيها قليل . والتعب يظهر على الناس بسرعة . . ولذلك تنصحك الدولة بأن

تسرف فى شرب السوائل . . وأن تتعاطى بعض حبات الملح . . حتى لاتصاب بالجفاف وضربة الشمس واحتراق البشرة . .

وإلى هنا جاء المكتشف البرتغالى دياس ووقف عند هذه الحافة ، وكاد يهلك بسبب العواصف الشديدة . ورست سفينته الصغيرة التى لو رأيتها لترددت أن تركبها فى بحيرة ناصر . . ولكنه مات فى نفس المكان عندما جاء إليه بعد ذلك باثنى عشر عاما !

وأما القمة التى تشرف على (رأس الرجاء الصالح) فقد أقاموا عليها السلالم المرهقة الرأسية . . وعند قمة هذا الجبل يوجد مختبر صغير يعمل بحساب مؤسسة (ماكس بلانك) الألمانية لرصد طبقة الأوزون فى نصف الكرة الجنوبى ـ فنحن هنا فى نصف الكرة الجنوبى . . ونحن هنا فى فصل الخريف . ويضحكون علينا عندما نسأل عن ملابس صيفية بيضاء . . فنحن فى الشمال على أبواب الصيف !

(٩)

هنا الخليط بين الألوان والأجناس واضح وإن لم يكن بنفس العـدد . . فـهناك الإنجليـز والفـرنسـيـون والألمان والإيطاليـون والهولنديون . أى البيض .

وهنا طبعا الأفريكانس والذين يتكلمون اللغة الأفريكانسية ـ أى اللغـة الفلمنكيـة الهـولنـدية المعـدلة . . وهم بيض أيضـا . وأن كانت هذه اللغـة يتـحـدث بهـا بعض السـود . وقـد أشـعل السـود الحرائق فى كل مكان يوم فرضوا عليهم هذه اللغة فى مدارسهم ـ لأنها لغة المستعمر الغادر الجبار السفاح .

وهناك الملونون ، أى الذين اخـتلطت فـيـهم الألوان البـيـضـاء والسوداء وعلى فترات طويلة . .

ثم هناك الآسيويون وأكثرهم من الهنود . .

وهناك السود أهل البلاد . .

واللغـات الرسـمـيـة إحـدى عـشرة لغة تتـقـدمـهـا : الإنجليـزية والأفـريكانسيـة والزولـو . . وأغلبيـة الـناس مـسيـحيون . . والمسلمون نصف مليون .

واليـهـود مـائة وخـمـسـون ألفـا من بينهم عـشـرون ألـفـا من الإسرائيليين . . وبضعة ملايين لها ديانات وثنية . .

وقد اختفت الفواصل بين كل الألوان . . ولكن الواضح تماما هو الرجل الأبيض . . وإن كـان البـيض أيضـا يؤكـدون لك أنهم انجليز وليسوا من البيض الأفريكانس . أى أنهم الأفضل !

ولكن لا يزال مستمرا كل ما كان ممنوعا محرما على السود أيضا : فلا اختلاط بين الرجال والنساء لا شرعا ولا حراما . . ولكن هناك اختلاطا ـ إلى حد ما ـ في المدرسة والكنيسة وفى المؤسسات والفنادق . . والمشكلة الكبرى التى تواجه الجميع : هى انحطاط مستوى التعليم والثقافة عند السود . . وهم قوة عاملة كبيرة ـ إن عملت وإن تعلمت لكى تلحق بالتطور الهائل الذى بدأته البلاد وتمضى فيه إلى قمته . .

سألت أحد رجال الأعمال عن الذى يمكن أن تفعله جنوب أفريقيا بسرعة لنهضتها المرتقبة ؟

فكان من رأيه أن إنجازا عظيما قد تحقق وهو الديمقراطية . . أما الباقى فهو أن يتعلم السود .

وأن يفيقوا . . ولكن المصيبة أنهم لايزالون كسالى وأنهم لا يتوقفون عن تعاطى الخمور وأشياء أخرى . . وعندما يشعرون بالعجز عن اللحاق بالبيض أو حتى فعل شىء فإنهم يلجأون إلى الخطف والعنف . . وأنهم يحتاجون إلى وقت فلم يذوقوا الديمقراطية إلا من خمس سنوات أو حتى ثلاث سنوات . . ولكن عندهم أمل عظيم !

الريفيرا عندنا

(١)

وزير السياحة الأردنى الأستاذ محمد العدوان رجل لطيف رقيق . هادىء النبرة تستريح إلى صوته ، وسوف تحبه بعد دقائق من حديثه اليك . فليس فى حاجة إلى مجهود كبير لكى تتأكد منه أنه صادق فيما يقول . فهو بالفعل كذلك . وهو حريص على علاقات قوية بين مصر والأردن . وبين مصر والأردن وإسرائيل ، فالسلام يعم للشرق الأوسط ولا حل لكل مشاكل المنطقة إلا بالسلام والوئام والتفاهم والجلوس معا : وهات وخد . .

وقد قدم الأمريكان لإسرائيل والأردن مشروعا سياحيا بديعا . المشروع اسمه (ريفييرا البحر الأحمر) وهو خلق منطقة سياحية نموذجية حرة بين الموانئ الثلاثة : العقبة وإيلات وطابا . . وفى هذه المنطقة تقام العمارات والفنادق والملاهى والمطاعم والقرى السياحية لكل الناس . ووراء هذه المنطقة وفى خدمتها طرق مفتوحة بين مصر وإسرائيل والأردن .

ومن الطبيعى أن ينزعج لبنان من هذه المنطقة التى سوف تخطف السياح من جبال وشواطئ لبنان . ولذلك تتبارى صحف لبنان فى الهجوم على وزير السياحة المصرى وتتصيد كلماته وعباراته وتلويها وتثير بها وعليه الدنيا !!

ومشروع ريفييرا البحر الأحمر ليس حلما . ولكنه كالحلم . ومن السهل تحقيقه . . فمصر قد أقامت زروع القرى السياحية فى العالم - نعم فى العالم . فليس لهذه القرى نظير إلا فى أمريكا . . بل إنها أبدع وأكثر تنوعا . ولأنها قطاع خاص فهى جميلة ، وهى أعظم دليل على أن القطاع الخاص قادر على المعجزات فى الغردقة وفى سيناء .

أما عالم الأمن والضبط والربط فمعجب بوزير داخلية مصر حسن الألفى لقدرته الفذة على تحقيق الأمن الذى هو ضرورى لحياة مصر سياسيا واقتصاديا . . وسياحيا !

وكان مشروع ريفييرا البحر الأحمر مفاجأة لنا . ولكن هذا المشروع لن يقوم على رجليه إلا بموافقة ومشاركة مصر . وقد صنعنا ريفييرا مصرية على البحر الأحمر فى الغردقة وشرم الشيخ !

وأقمنا قرى ضخمة على شاطئ الاسكندرية ، وهى تحتاج جميعا إلى اعادة نظر ومراجعة للمواصلات والماء والكهرباء والأمن ، لمواجهة هذا العدد الكبير من سكانها ، وهم الذين يملكونها أيضا . . .

(٢)

سفير مصر فى إسرائيل محمد بسيونى قد اشتكى لطوب الأرض من إجراءات الأمن التى تعوق السياحة إلى مصر . . فهو لايفهم - حتى الآن - على أى أساس ترفض أجهزة الأمن المصرية عددا كبيرا من السياح قد اوصى بهم السفير المصرى . مثلا : رجل وزوجته وابنه يطلبون السفر إلى مصر ، وبعد ثمانية أيام توافق أجهزة الأمن على دخول الزوجة وترفض الزوج والابن . لماذا ؟

ولماذا لا تعطى تأشيرة الدخول إلا بعد ثمانية أيام ؟

وما معنى أن ٩٩٪ من التأشيرات ترفضها أجهزة الأمن المصرية لسبب غريب يقول : الدخول ممنوع لعدم وضوح الاسم ؟!

أن معظم الأسماء ليست مألوفة لأنها أسماء يهودية . ولا حيلة للسائح فى أن يكون غريبا عن عين وأذن الشاويش الذى يعطى التأشيرة على الحدود أو فى القاهرة !

ولا أحد يفهم حتى الآن - موقف مصر من السياحة إلى إسرائيل ؟ هل هى ترفض السياحة ؟ هل لاتزال تقاطع اليهود فى الوقت الذى دخل الإسرائيليون كل دول الخليج رغم أنها لم توقع اتفاقية مع إسرائيل . ولكن مصر التى وقعت الاتفاقية تعارض التطبيع ولايزال الذين يسافرون ويعودون يتعرضون للتحقيق والمساءلة الغريبة ! مع أن الشعب الفلسطينى الذى كان سببا فى الحرب مع إسرائيل قد اتفق مع إسرائيل وأصبحت الأبواب والنوافذ مفتوحة على آخرها . . ولا تزال بعض النقابات المصرية

تعارض فى سفر أعضائها فى مؤتمرات دولية رفيعة المستوى تقام فى إسرائيل ؟!

ولا أحد يعرف ما هو بالضبط الموقف المصرى الرسمى ، ولم نجد ردا واضحا على تساؤلات الرسميين فى الأردن وإسرائيل على المعاملة غير الإنسانية وغير المتحضرة التى يتعرض لها السياح على الحدود المصرية !

نحن نعلم أن هناك إجراءات أمن مشددة . ولذلك لابد أن نعرف بدقة من الذى يجىء إلينا . مفهوم . ولكن إذا كان القادم من كبار رجال الأعمال فى العالم ، وإذا كان هذا الرجل قد سبقته توصيات من السفير المصرى تقول إنه وإنه . . . ومع ذلك يجىء الرد من مصر بالرفض وبدون أسباب . لماذا ؟

(٣)

لقد قابلت عددا كبيرا من أساتذة الجامعات المصرية هنا فى تل أبيب لم يحصلوا على موافقة المجلس الأعلى للجامعات على سفرهم إلى إسرائيل . فسافروا على مسئوليتهم ، ولكن ما المعنى ؟

المعنى : أن سياسة مصر الرسمية فى هذا الموضوع ليست واضحة . . وليست محددة هل يسافر المصريون إلى إسرائيل كما يجىء عشرات الألوف من إسرائيل إلى مصر ؟

وعندنا إجابة واحدة عن هذا السؤال : لماذا لايسافر سياح كثيرون إلى إسرائيل ؟ والاجابة وهى أن إسرائيل ليست دولة سياحية ، فالمسلمون يسافرون للصلاة فى المسجد الأقصى ومسجد الصخرة . . وفى الطريق إليهما يتفرجون على حائط المبكى . انتهى!

أما الاقباط فلم يوافق الأنبا شنودة على سفرهم ورؤية كنيسة الأقباط فى القدس وكنيسة القيامة وطريق الآلام . . ثم دير السلطان ـ وليس الدير هو المشكلة ، وإنما فقط الطريق الصغير المؤدى إليه . والبابا شنودة منع السفر إلى إسرائيل احتجاجا على الموقف الإسرائيلى من إعطاء هذا الممر الضيق الصغير إلى الرهبان الأحباش !

وعندما ذهبنا نشاهد دير السلطان الذى هو فى أيدى الرهبان المصريين وجدنا أحد رهبان الحبشة واقفا يعترض الطريق إلى الممر الضيق . . ولما رأى الرهبان الأحباش سفيرنا محمد بسيونى راحوا يقولون : أنت السبب . . أنت سبب وجع القلب كله !

وأذكر أننى وعدت أحد المديرين فى مؤسسة دار المعارف بأنه إذا أعد الميزانية فى وقت قصير فسوف أبعث به إلى القدس لزيارة كنيسة القيامة وكنيسة المهد ودير السلطان . واتصل بى د . بطرس غالى وزير الخارجية فى ذلك الوقت . وقال لى : فى عرضك أنا لا أريد نزاعا مع الأنبا شنودة . فقلت له : لقد وعدت الرجل . فليسافر على أنه صحفى . وسافر الرجل وعاد سعيدا ، وقال لى : أنا الآن فى وضع صعب . فلا أنا قادر على أن اشكرك فى الصحف ولا قادر على تعليق ورقة صغيرة فى أى مكان من جدران دار المعارف . . لأننى أخشى غضب الأنبا شنودة !

ولكن الكثيرين من الأقباط يسافرون سرا . . ولا من شاف ولا من درى !

وسوف ينفتح الباب الضيق والممر إلى الكنيسة القبطية وتنحسم مشكلة لا معنى لها ، ولكنها مصدر حزن وأسى لأقباط مصر . .

والقرار الإسرائيلى فى هذه القصة ليس دينيا ولكنه سياسى . . ولم يعد هناك أسهل من حل المشاكل السياسية فى المنطقة العربية كلها !

(٤)

عندما دخلنا المسجد الأقصى مررنا بجماعة من المصلين جالسين يتفرجون . إنهم فلسطينيون . شتمونا . حكومة وشعبا . وتضايقت وكنت قد خلعت حذائى . واقتربت من واحد منهم . . وقلت له : الخونة عندكم وأولاد الكلب أيضا !

وفى طريق الآلام تضايقت من بعض أصحاب الدكاكين . . وللأمانة أقول أنهم عرفوا السفير المصرى محمد بسيونى ونادوه وحيوه . . وبعد لحظات شتموا مصر حكومة وشعبا ، وشتموا الحكومة أكثر . . مع أن ياسر عرفات ومساعديه قد ذهبوا فى السلام مع إسرائيل إلى اسرع وابعد مما فعل السادات . . ومع أنهم باعترافهم ليلاً ونهاراً وفى كل العواصم يرون أن الفضل لحسنى مبارك وجهوده المقبلة . . هم الذين يقولون ولا يزالون .

ولكن فى فلسطين كما فى مصر وإسرائيل والبلاد العربية من لا يريدون السلام . من يفضلون المواقف القديمة مهما كلفت من فلوس وأرواح ودمار . . ولكن التاريخ يدوس الجميع بعجلاته الأربع : الحرية وحق تقرير المصير والرفاهية والكرامة . . والدنيا كلها من حولنا تحطم أغلالها وتنسى ماضيها وتعيش حاضرها طريقا إلى المستقبل بلا دماء - فأوروبا التى لم تتوقف مذابحها الدموية أصبحت عائلة كبيرة سمناً على عسل ، على نبيذ على فاكهة على حلوى . . رغم لغاتها التسع ونظمها السياسية ومذابحها الدينية .

واقتربت من أحد الغاضبين وقلت له : هل مصر أساءت لكم ؟

فاجاب : نعم حسنى مبارك !

قلت : كيف ؟

قال : إنه الذى فتح الأبواب والطرقات أمام أبو عمار لمصافحة رابين !

قلت : ليس صحيحا . . وإنما الشعب الفلسطينى كافح ومات وقاتل واعترف العالم كله بحقه . . وساعدته الدنيا بأموالها وآرائها وسلاحها . . وتفاوض أبو عمار مع إسرائيل من وراء كل الذين ساعدوه وضحوا بأموالهم وأبنائهم من أجله . . ولم يعترض أحد على ذلك ! فهذا حقه . . ونحن نؤيد كل ما يراه أبو عمار فى صالح شعبه . . . وكل الزعماء العرب قد باركوا الصلح الفلسطينى الإسرائيلى . . فأنت ترى أن كل هؤلاء خونة بما فيهم أبو عمار ؟!

- نعم !!

صديقى الشيراوى

(١)

وفى الشهر الماضى دعانى صديقى يوسف الشيراوى وزير التنمية والصناعة فى دولة البحرين أن أتفرج على كوكب المشترى الذى سوف يتعرض لاصطدام ٢١ كتلة جليدية كانت مذنبا يدور فى الكون من أربعة آلاف مليون سنة .

ثم رصده ثلاثة من الفلكيين هم شوماخر وزوجته والفلكى ليفى .

وقد اتخذ المذنب اسم : شوماكر - ليفى ٩ .

وكان ذلك من سنتين .

ومن سنة اقترب المذنب من كوكب المشترى فتفتت إلى كتل جليدية الخ .

وذهبت إلى مبنى صغير نظيف جدا . وبه عدد من التلاميذ الصغار كلهم دون العشرين ورأيت كيف يرصدون النجوم وكيف يضعون البرامج فى الكومبيوتر وتظهر على الشاشة المعلومات التى نريدها عن المجموعة الشمسية وعن كوكب المشترى بصفة خاصة . .

والكوكب يبعد عن الشمس ٤٨٤ مليون ميل ويبلغ ألف مرة حجم لكرة الأرضية . وقلب هذا الكوكب فى حجم الأرض وهو مكون من لحديد والحجارة . ولكى نعرف قوة الارتطام نتذكر أن السوفييت قد

فجروا سنة ١٩٦١ قنبلةهيدروجينية جبارة قوتها ٨٥ ميجاتون - أما قوة ارتطام هذا المذنب بكوكب المشترى فسوف تبلغ ٢٠ مليون ميجاتون .

وسوف تؤدى الارتطامات المتوالية إلى خلق سحب ترتفع إلى ٢٤٠ كيلو مترا خارج غلاف كوكب المشترى .

ولم يحدث فى التاريخ أن اتجهت إلى السماء مثل هذا العدد الهائل من العدسات والعقول الألكترونية والعلماء ترقباً للاصطدام العظيم .

والسؤال هل من الممكن أن يقع للأرض شىء من ذلك ؟

لقد توقع العلماء شيئا مماثلا من خمس سنوات .

وأخيرا عدلوا عن رأيهم .

فقد مر المذنب الذى كان يهددنا ، بعيدا عن مجال الأرض !

ودخلت مع يوسف الشيراوى قبة المرصد الصغير - المرصد المدرسى . . وأدار التلاميذ العدسة الكترونيا .

واستقرت . ونظرت ووجدت كوكب المشترى وسألونى إن كنت أرى بعض الأقمار حوله .

هم قالوا أنهم رأوا ! ولكننى لم أستطع أن أرى هذه الأقمار الصغيرة التى تبعد عنى ٥٠٠ مليون ميل . .

وأمضيت ساعات أتطلع إلى السماء بعيون صغيرة وحولى تلاميذ صغار بهرهم العلم الحديث وسحرهم الكون الغامض فوقنا وحولنا - وكنت سعيدا . . ثم إننى أتطلع إلى يوم الارتطام العظيم !

وسوف اذهب إلى مرصد أكبر وأعظم .

طوال هذه الليالى .

(٢)

علماء الفلك يصفون المذنب (شوماكر ـ ليفى) بأجزائه العشرين أو الخمسين الآن ، بأنه عقد اللؤلؤ ـ كما يبدو فى الفضاء من بعيد . وهذه الأجسام الجليدية سوف تحدث فجوة فى الغلاف الغازى للمشترى فى مساحة أفريقيا . ولكن أثر هذه الأجسام ضعيف جدا مثل اصطدام ذبابة بفيل . . ولكن بالنسبة لعلماء الفلك فإنه مناسبة رائعة باهرة تكشف لنا جو المشترى ، دخولا وخروجا وطاقة وحرارة .

أما إذا اسقطت هذه الأجسام العشرون أو الثلاثون على سطح الأرض التى هى واحد على ألف من حجم المشترى فسوف تقضى على الحياة الإنسانية والحيوانية تماما .

وهذا الاحتمال مستحيل . والفضل فى ذلك يرجع إلى قوانين الحركة التى كشفها لنا العالمان كيلر ونيوتن . ولكن سقوط أجسام من الفضاء الخارجى على أرضنا يحدث كثيرا . . ففى كل ساعة يسقط جسم فى حجم الليمونة . ويكون فى حجم الاتوبيس مرة كل عشر سنوات . وفى حجم برج القاهرة مرة كل عشرة آلاف سنة . . ويقع جسم كبير فى حجم المقطم كل عشرة ملايين سنة . .

وأخيرا وأكبر الأجسام التى سقطت على الأرض كان من شهرين فقد سقطت كتلة حجرية فوق المحيط الاطلسى . وعندما دخلت الغلاف الجوى انفجرت وكان لها وهج الشمس عند

الظهيرة . وقد سجلت سفن التجسس الأمريكية هذا البريق ولولا هذه السفن لتخيل الأمريكان أنها قنبلة ذرية انطلقت نحوهم . . وكان الانفجار يعادل عشرين قنبلة ذرية من طراز قنابل هروشيما .

ولأن الارتطام سوف يقع على الجانب الآخر من كوكب المشترى فلن يكون له أثر واضح أمام عدسات سكان الأرض . . وإن كان هذا الارتطام هو أعنف ما عرفت المجموعة الشمسية . . وسوف يتأكد العلماء بهذا الارتطام إن كان صحيحا ما قيل من أن كوكب الزهرة قد خرج من كوكب المشترى نتيجة لمثل هذا الارتطام . .

ولن يحدث لسكان الأرض أى ضرر . . ولن تضطرب الموجات اللاسلكية ولن تتوقف أجهزة الراديو أو التليفزيون . .

ولن يصطدم هذا المذنب بكوكب المريخ كما نشرت الصحف خطأ فهذه جميعا مخاوف ليس لها أى أساس علمى . .

وسوف ينفرط عقد اللؤلؤ ويتحول إلى كتل من النار تضىء هناك وتحرق نفسها هناك أيضا . . والعدسات من كل لون وحجم وارتفاع تسجل هذا المهرجان الكبير ، الذى سوف نراه على كل الشاشات عند نهاية هذا العام من تسجيل المراصد الفضائية . .

(٣)

منذ أيام سجل مرصد (هابل) الفضائى شيئا عجيبا على مسافة ألوف السنين الضوئية - أى على مسافة ألوف ملايين ملايين الكيلو مترات . . الصورة ملتهبة متوهجة . سوف تحتاج من العلماء إلى سنوات من الدراسة لكى نفهم ماذا يجرى هناك فوق . . . والصورة عبارة عن حلقات من النار ، وفى داخل الحلقات عيون مثل عيون القطط صفراء حمراء . . وفى قلب الحلقات فجوات سوداء . يعنى ايه ؟

يعنى أن هذه الصورة تؤكد أن نجما كبيرا قد مات وأن هذه جنازته ، أو أن مجرة بها ألف مليون نجم تحتضر . وأن هذا الاحتضار قد حدث من ألوف السنين ، وأن هذه الصورة لم تصلنا إلا أخيرا . . .

وقد اعتدنا أن نقرأ ونسمع علماء الفلك يتحدثون عن مذبحة أو مجزرة فضائية . . هذه المذبحة هى أن أحد الثقوب السوداء ابتلع من ألوف السنين ملايين النجوم . . . إن الثقب الأسود قد سحبها وامتصها واعتصرها حتى صارت جسما أكثر كثافة وأصغر حجما . وأن هذه الثقوب أو البالوعات الفضائية تقوم بتحويل ألوف ملايين النجوم والغازات إلى مواد أصغر وأصغر . . . وأن الكون من أوله لآخره سوف يتحول إلى ثقوب سوداء أو مادة سوداء . . . وأنه بمرور الوقت سوف يعود الكون كما بدأ . . . وكانت بدايته كتلة واحدة . . . وهذه الكتلة سوف تصبح أبسط وأبسط وأصغر وأصغر

حتى تكون فى مثل حبة الحمص . . . ثم تصبح اصغر وأصغر فيكون لها حجم ذرة واحدة . . . أو جزء من ذرة وتكون هذه هى البداية . . . أما الذى كان قبل أن يخلق الله هذه الذرة التى تفجرت ، فكانت هذا الكون من أوله لآخره ، فنحن لا نعلم كيف كانت البداية ولا ما هو السبب . . . ولا ما هو القانون الذى بمقتضاه كان هذا الكون !

أنت وأنا كنا هناك . . . ذرة . . . غازا عند بداية الكون . . . ثم تطورت الذرة ، والغازات إلى تكوينات أخذت تبرد وتتباعد وتلتف بعضها حول بعض . .

والإنسان ليس إلا تطورا للذرة . . . تحولت إلى مادة إلى حياة إلى إنسان إلى فكر يحاول فهم كل هذه السلسلة الطويلة . . . أى أن الكون لكى يعرف نفسه ويفهم أسبابه صار إنسانا عاقلا . . .

ونحن الآن فى انتظار الارتطام القادم الذى سوف ينقله إلينا مرصد (هابل) . . . هل يحدث شىء مفاجئ فلا يتحقق هذا الارتطام ؟ كما قالت بعض الصحف ؟ الجواب هو أن ارتطاما سوف يقع فى مكانه وزمانه ، وليس علينا إلا أن ننتظر !

(٤)

كلما حدث شىء فى الفضاء ترتب عليه شىء آخر على الأرض . . ارتفاع فى درجات الحرارة . . أو نشاط الزلازل البراكين أو ظهور أمراض جديدة . . وقد مر بالقرب من الأرض المذنب هيلى . . وبعد أسبوعين سوف يصطدم مذنب بكوكب المشترى . .

ولذلك يفسر العلماء ظهور بكتريا متوحشة تأكل الإنسان فى بريطانيا وبعض الدول الأوروبية واستراليا باقتراب المذنبات من الأرض . . فهذه البكتريا هى أشكال جديدة من الحياة المتوحشة هبطت من الفضاء . .

وبعض العلماء يفسرون ظهور البكتريا الشرسة بما فعلته «الهندسة الوراثية» فى المأكولات من نباتات وحيوانات . . ولذلك فالناس قد اتجهوا إلى تناول الحيوانات والنبات والفواكه الطبيعية التى لم تستخدم فيها تطبيق الهندسة الوراثية فى تخليق البذور والبقول واللحوم . لأن الهندسة الوراثية تقوم بتمزيق (الجينات) أو مكونات الخلية الحية وإلصاقها بجينات فى نبات أو حيوان . . وبسبب هذا الخلط أو التركيبات الجديدة تتغير الوان وأحجام النباتات والحيوانات وطعمها أيضا . . .

فقد انتجت شركات الأطعمة فى أمريكا نباتات جديدة أكبر وأطول عمرا . وإن لم يكن لها نفس الطعم أو الرائحة . كما اخترعت هذه الشركات أنواعا من الأرز تحتاج إلى ماء أقل . . وانتجت أنواعا من القمح والذرة والقطن لاتحتاج إلى مبيدات حشرية . . وأنواع من البقول لاتنفخ البطن .

ولجأ بعض علماء الهندسة الوراثية إلى خلط جينات إنسانية بجينات للخنازير ، فاسفرت عن ميلاد خنازير لها عيون ملونة . . ثم ظهرت على وجوهها تجاعيد غريبة . . كما أنها ولدت مصابة بالتهاب فى المفاصل !

ولكن انخفاض أسعار هذه المنتجات وطول عمرها ، لايزال يغرى المستهلكين بالأقبال عليها ، مهما كانت النتائج . وفى استطاعة العلماء أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك . . ولكن القانون يمنع العلماء من المغامرات التى تؤدى إلى ظهور مخلوقات غريبة بسبب تخليط الجينات فى الإنسان والحيوان . .

ولايزال الرأى السائد الآن هو أن ظهور الأمراض والكائنات الصغيرة التى ينهش بعضها البعض ويكون الإنسان ضحيتها بسبب سقوط الأتربة والغازات واقتراب الأجسام الضالة فى الفضاء ودخولها الغلاف الأرضى وانتقالها مباشرة إلى داخل الإنسان . .

ومن المؤكد أن (الإيدز) قد جاء من الفضاء الخارجى . .

نصف مليون ؟!

(١)

وإذا نقلت الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء والتليفزيون ما كتبته بالأمس عن سموم النيل الذى يجرى ميتا ومميتا للنبات والحيوان الذى سوف يصبح طعاما لنا ، فسوف نغضب ونرى أن العالم الخارجى يتآمر على مصر . . وأننا ضحية ، وأن العالم الخارجى لو تركنا لحالنا لأصبحنا أقوى من ألمانيا وأعظم من اليابان!!

وأمريكا مين وفرنسا مين ؟ المصريين أهمه ؟!

ولكن قل لى أين همـه ؟ فى أى مكان من هذه الدنيا . . إنهم فى نهر النيل الذى يمشى ميتا فى جلده وبين ضفتيه . لقد مات نهر النيل واقسم ألا يستريح له موج ، وألا يجف لـه سم قبل أن يستردنا . . قبل أن يتحول مجراه إلى مقبرة المصريين . . وهو الذى وهبنا الحياة ، ثم اكتشف متأخرا جدا أننا لانستحقها ، فقرر أن يستردها . . وهذا ما تفعله الدول الأجنبية عندما تعطينا منحة وتمضى السنون دون أن نستخدمها فتستردها ، وهذا يحدث كل عام وبمئات الملايين !

وأنا أنتهز هذه الفرصة وأتقدم برجاء للدكتور على عبد الفتاح وزير الصحة بأن يعجل بتحليل الماء النقى الطبيعى الذى يباع فى الزجاجات البلاستيك .

سوف يجد أن بعض أنواع البلاستيك سام ، والله العظيم سام . . تماما كالفورمالين والمواد الحافظة للأطعمة . . فالبلاستيك الحافظ للماء سام !

ويجب أن ينشر علنا ما الذى وجده فى هذه المياه التى تباع بالفلوس . . يجب أن يعرف من أى عمق ترتفع هذه المياه . . ومن المعلوم أن المياه المستخرجة من الدلتا يجب أن تكون على أعماق سحيقة . لأن مياه الصرف بما فيها من أملاح كيماوية ومواد عضوية أصبحت تتغلغل فى التربة المصرية . . ويجب أن يصارح الشعب أن كانت المياه المستخرجة من أرض الدلتا صحية . .

وإلا كانت هذه المياه سموما نشتريها بالفلوس . . أى أننا أمام جماعة أخرى من الغشاشين واللصوص يبيعون السم فى الزجاجة!

لابد أن تكون المياه المستخرجة تحت تربة وادى النيل عميقة جدا . مع ملاحظة أنه لاتوجد فى مصر مياه يمكن أن توصف بأنها (معدنية) .

أبدا ! وإذا كانت بعض الزجاجات قد كتبت على ظهرها أسماء شركات المياه المعدنية الأوروبية ، فيجب أن نتأكد لماذا طبعوا هذا الاسم . ومن المعروف أن شركات المياه هذه قد عرضت عينة نادرة على الشركات العالمية فباركتها الشركات العالمية مقابل أجر كبير ، وبعد ذلك راحوا يستخرجون مياها غير صالحة للشرب !!

هذه هى قضية القضايا : شعب يريد أن يشرب ماء نقيا ليعيش . . أما التقدم والتطور . . إلى آخر الكلام الهايف الذى يجىء فى الأغانى ، فليس من حق شعب لايجد ما يشربه ولا يأكله ، أن يردده إلا إذا كان مسطولا !

(٢)

نشرت الصحف إحصائية رسمية تقول إن عدد العلماء المصريين فى العالم حوالى نصف مليون . وأنهم جميعا هاجروا من مصر . وأن هجرتهم خسارة على مصر . انتهى الخبر الغريب العجيب والذى لايصح أن نصدقه لأنه استهانة بعقول الناس !

ولا أعرف ما هو المقصود بالعالم المصرى . هل العالم هو كل واحد حصل على شهادة جامعية ؟ أن دولا أسيوية ترى أن الأمى هو الذى حصل على الثانوية العامة . ولايكون متعلما إلا إذا تخرج فى الجامعة . والمتعلم لايمكن أن يسمى عالما . . تماما كما أن الذى يفك الخط لايسمى متعلما !

ولكن الإحصائية الرسمية تقول إن هؤلاء هم العلماء المصريون الذين انتشروا فى الدنيا وحرموا بلادهم ، من الاستفادة منهم . . وبعض هؤلاء العلماء قد انفقت عليهم الدولة الألوف لكى يصبحوا علماء . وهذه أموال ضاعت على الشعب المصرى . .

والحقيقة أن هذه الأموال لم تضع فهؤلاء المتعلمون إذا لم يكونوا متعلمين لأصبح من الصعب عليهم أن يعيشوا فى بلاد أخرى . . فهم سلعة مصرية لا بأس بها . . ثم أنهم يبعثون بأموالهم إلى مصر . فالذى انفقناه قد عاد إلينا وأكثر !

ولا أفهم ما الذى نستنكره من هجرة المصريين إلى الخارج . طبيعى أن يهاجر الحيوان والطيور إلى ظروف جوية أحسن . . أو غذائية أفضل . وهجرة الحيوان والإنسان قديمة . وهى طبيعية جدا .

ولولا هجرة الملايين من أوروبا إلى أمريكا ما كانت أمريكا . . ولولا اليونانيون الذين هاجروا والاتراك والسوريون واللبنانيون واليهود ما عاشت بلادهم على ثرواتهم وخبراتهم . وكلها بديهيات في الحركة السكانية على الأرض . ولكننا في مصر نعجب لكل شيء ليس عجيبا !

وقبل أن نذهب بعيدا في المقارنة بين الأمي والمتعلم ، والمثقف والمتعلم الأمي والمثقف السطحي ، يجب أن نقول أن نشر مثل هذه الأرقام والبيانات عن العلماء المصريين ليس له أساس غير (الفشخرة) بأن عندنا عددا كبيرا وأنهم أصحاب فضل على الدنيا كلها . فإذا لم تستفد منهم مصر ، فقد استفادت شعوب أخرى . .

وهذا المعنى هو الذى يجعلنا نصر على أن تكون أغنية بلهاء تقول (المصريين اهمه) نشيدا قوميا . . مع أنه (مارش) جنائزى . . مثل مارش عايدة !

حدث !

فى سنة ١٩٤٧ حدث شىء عجيب . فقد نزل أحد الأطباق الطائرة فى أمريكا . وانفتح الطبق ونزلت منه كائنات عاقلة . وهذه الكائنات اتجهت مباشرة إلى إحدى القواعد الجوية . . والتقوا بعدد من رجال الحرب الأمريكان ورجال المخابرات والمخترعين . وارتفع الطبق الطائر إلى الفضاء وقد حمل الطبق معه عددا من المواطنين الأمريكان وبعض الحيوانات والطيور . .

هذه حقيقة معروفة . مؤكدة . ولكن الحكومات الأمريكية المتتابعة تكتمت هذا الخبر . . لماذا . هل وعدوا سكان الكواكب الأخرى الذين جاءوا بالطبق الطائر ألا يفشوا هذا السر وإلا . . نسفوا كوكب الأرض ؟

لقد أشار الجنرال أيزنهاور إلى ذلك . . ثم عاد فسحب كلامه . . وقد وعد الرئيس كارتر بأنه سيكشف الغطاء عن هذا السر الخطير . ثم تراجع . ولم يقل شيئا .

وقد تشكلت فى أمريكا لجان ضخمة لتقصى الحقائق . واصدرت تقريرها فى الوف الصفحات . . وهذه الأطباق الطائرة يسمونها + (U.f.O.) أى الأشياء المجهولة الطائرة . .

ومن حين إلى حين يرى الناس طبقا طائرا . ولكن الناس عموما

يتشككون ويرون فى ذلك نوعا من التخريف . ولا يزال أناس مثقفون يصورون ويسجلون هذه الأشياء العجيبة اللون والسرعة والشكل والتى تظهر وتقترب من الأرض وتختفى . .

رآها الناس فى روسيا وأمريكا شمالا وجنوبا واستراليا . . ثم أنها تركت آثارا على الأرض .

ولكن المجلات العلمية الأمريكية طلبت إلى القراء أن يبعثوا بخطابات إلى البيت الأبيض يطلبون من الرئيس الأمريكى أن يريح أعصاب الناس وأن يقول لهم شيئا . . أى حاجة . . وفى الأعداد الأخيرة من مجلتى (أو منى) و(دسكفرى) دعوة إلى جميع المثقفين والعلماء فى أمريكا والعالم أن يتوجهوا إلى الرئيس الأمريكى ليس لكى يحل هذا اللغز أن هناك أطباقا وإنما السكوت عن ذلك ٤٧ عاما !

وفى السنوات الأخيرة تطور وضع الأطباق الطائرة . اختلف شكلها وحجمها ونزل منها أناس كالضوء الباهر يجمعون الطيور والحيوانات . . ويقال بعض الأطفال . . ويقال أن الأطباق الطائرة نزلت بكائنات إنسانية وحيوانية . . ولم يعد أحد يراها . ولكن لابد أن يكون قد حدث !!

بعضهم لا يضحك !

قلت للأمير عبد المجيد / أمير المدينة المنورة وهو من ألطف الأمراء وأرقهم : إننى أحب المدينة المنورة واشعر أن لى أهلا فيها . . وقلت له إن الراحة النفسية تتدفق على الإنسان فى هذه المدينة لايدرى من أين تهب عليه . . أو تفيض عليه . . أو تنفجر فى داخله . . إن مسجد الرسول بهرنى أكثر من الكعبة . فالكعبة . رمز ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حقيقة «رجل نبى «أعظم الناس . . أعرف حياته وعذابه وحكمته ثم هذا المسجد الرائع الذى وسعه وجدده وجمله الملك فهد حتى جعله أكبر من ٤٠ مرة مما كان عليه أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فعلى أيام الرسول كانت مساحته الفى متر مربع . . أما الآن فهو يتسع لكل سكان المدينة والقرى المجاورة إذا قرروا الصلاة معا . .

وهو من الرخام من كل لون والهواء البارد يخرج من تحت ويلتف حول الأعمدة الرخامية لتزداد برودة ولتكون دوامات هادئة فى داخل المسجد . . وتحت الأرضية الرخامية أنابيب للتبريد فى عز الشمس . . والسقف يتحرك عاما كما يتحرك فى مسجد الملك الحسن الثانى فى الدار البيضاء ! ومسجد الرسول أكبر مساجد المسلمين . وإن كان مسجد الحسن الثانى أفخم مسجد فى الدنيا . وقد تكررت هذه الآية الكريمة ، «وكان عرشه على الماء» .

ثم قلت للأمير عبد المجيد : إن الجنة تبدأ بالمدينة وتنتهى بمكة . . أما النار فهى تبدأ من جده وتنتهى بها !

وضحك الأمير عبد المجيد . . ومادام قد ضحك إذن فهذه العبارة مقبولة . إنها عبارة . ليس فيها تقليل من أهمية جدة وأهل جدة والعمارة والحضارة والتجارة والصناعة فى هذه المدينة التى بها أجمل كورنيش فى الدنيا . . ففيه تماثيل ولوحات فنية من الحديد والفخار والجرانيت . متحف مفتوح بديع لكل الناس . . بلا أبواب ولا نوافذ . .

ورغم كل ذلك فإننى لا استبعد أن أجد مقالا هنا وهناك . . ونقدا وشتيمة لا مانع . ولا بأس فصناعتنا الكلام نقوله وتقرأه . . وقديما قال شارلى شابلن : كيف تخاف من منظر الدم مع أنه يجرى فى عروقنا ؟!

ولكن بعض الناس يخافون ويركبهم ألف عفريت !

الفهـرس

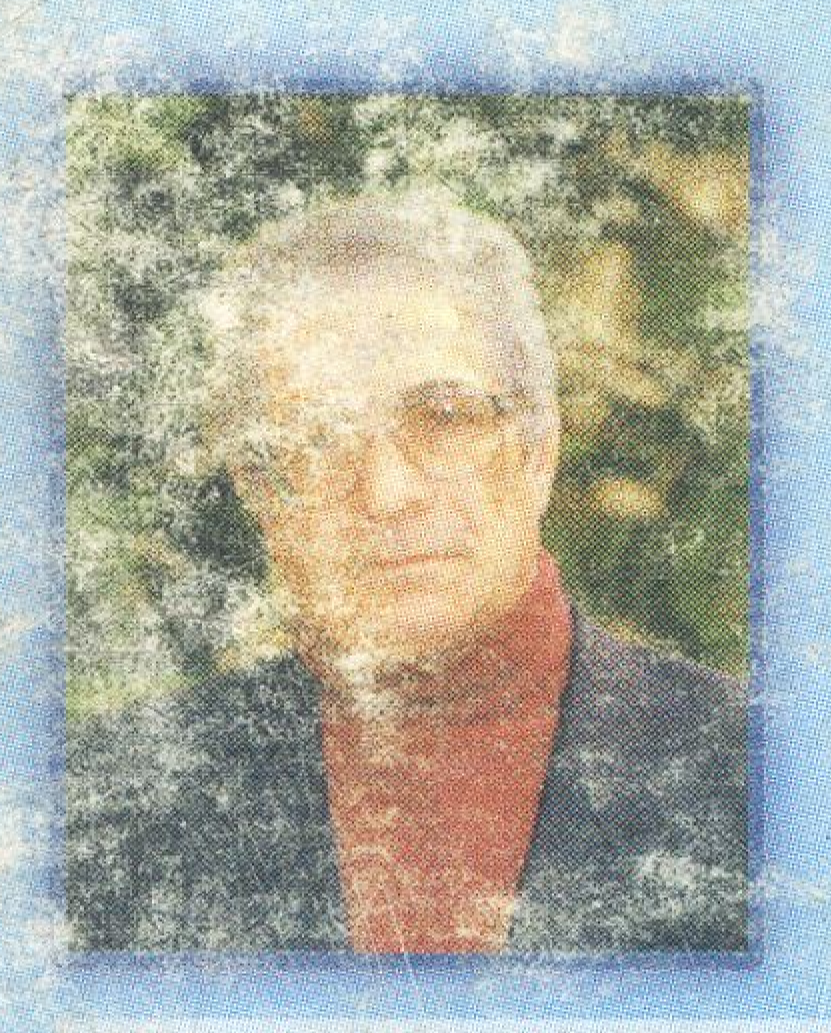
كتب للمؤلف

١- وحدى مع الآخرين
٢ - عذاب كل يوم
٣ - طريق العذاب
٤ - يسقط الحائط الرابع
٥ - كرسى على الشمال
٦ - ساعات بلا عقارب
٧ - مع الآخرين
٨ - بقايا كل شىء
٩ - نحن أولاد الغجر
١٠- من نفسى
١١- شىء عن الفكر
١٢- حتى أنت يا أنا
١٣- لوكنت أيوب
١٤- أضواء وضوضاء
١٥- كل شئ بشئ
١٦- الحنان أقوى
١٧- إنها الأشياء الصغيرة
١٨- يعيش .. يعيش
١٩- مواقف ١
٢٠- مواقف ٢
٢١- مواقف ٣
٢٢- عزيزى فلان
٢٣- هى وغيرها
٢٤- يوم بيوم
٢٥- يامن كنت حبيبى
٢٦- قلوب صغيره
٢٧ - شارع التنهدات
٢٨ - فوق الركبة
٢٩- هذه الصغيرة وقصص أخرى
٣٠- الأظافر الصغيرة
٣١- عريس فاطمة
٣٢- الغرباء
٣٣- أثنين .. أثنين
٣٤- الوجوديه
٣٥- الخبز والقبلات
٣٦- التاريخ أنياب وأظافر
٣٧- من أول نظره
٣٨- الحائط والدموع
٣٩- الصابرا
٤٠- وجع فى قلب اسرائيل
٤١- ديانات أخرى
٤٢- على رقاب العباد
٤٣- الخالدون مائه أعظمهم محمد رسول الله
٤٤- دراسات فى الأدب الأمريكى

٤٥- دراسات فى الأدب الايطالى
٤٦- دراسات فى الأدب الألمانى
٤٧ - فلاسفة وجوديون
٤٨- فلاسفة العدم
٤٩- وداعًا أيها الملل
٥٠- الذين هبطوا من السماء
٥١- الذين عادوا إلى السماء
٥٢- أرواح وأشباح
٥٣- القوى الخفيه
٥٤- لعنة الفراعنة
٥٥- أوراق على شجر
٥٦- فى السياسة جزاء ١
٥٧- فى السياسة جزء ٢
٥٨- وكانت الصحة هى الثمن
٥٩- الوان من الحب
٦٠- أظافرها الطويلة
٦١- الدين والديناميت
٦٢- لاحرب فى اكتوبر ولاسلام
٦٣- طلع البدر علينا
٦٤- قالوا !!
٦٥- عاشوا فى حياتى
٦٦- فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٦٧- الا قليلا
٦٨-حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٦٩- بلاد الله . . خلق الله
٧٠- أطيب تحياتى من موسكو
٧١- أعجب الرحلات فى التاريخ
٧٢- اليمن ذلك المجهول
٧٣- غريب فى بلاد غريبه
٧٤- أنت فى اليابان
٧٥- مدرسة الحب
٧٦- حلمك ياشيخ علام
٧٧- مين قتل مين
٧٨- العبقرى
٧٩- الأحياء المجاورة
٨٠- جمعية كل وأشكر
٨١- سلطان زمانه
٨٢- حقنه بنج
٨٣- مش رقم ٣
٨٤- كلام لك ياجاره
٨٥- رومولوس العظيم
٨٦-هبط الملاك فى بابل
٨٧- زيارة السيدة العجوز
٨٨- الشهاب
٨٩- زواج السيد مسيسبى
٩٠- هى وعشاقها


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

أنيس منصور



اقرأ أى شىء

- رأيى الخاص: أن أى شىء .. أى ورق يقع فى يدك يجب أن تقرأه، المهم أن تكون القراءة عادة .. وأن تصاحبها لذة المعرفة .. ولا خوف على هذا القارئ الذى يبحث عن الكلام اللذيذ .. عن الموضوعات الممتعة؛ لأن هدف القراءة هو أن تتحقق المتعة والبهجة لديك .. وهذه المتعة هى التى تجعلك لا تتوقف عن القراءة ولذلك فالآباء يجب ألا يخافوا من أى شىء يقرؤه الابن صغيراً كان أو كبيراً .. المهم أن يكون هناك كتاب .. وأن يكون هناك حرص على شرائه والاحتفاظ به بعد ذلك نواة لمكتبة خاصة .

وكان الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل يقول: عندما أشرع فى الكتابة فإننى أعود إلى الكتب القديمة والأساطير القديمة .. وأجد متعة فى ذلك فمن آمالى ألا أكتب مثلها وألا أكون غامضاً مثلها فإنما أن أشيع النور والمنطق فى كل سطر أكتبه ...

- المهم أن يجد الإنسان الجو المناسب . هذا الجو يجىء من الكتاب ومن المؤلف ومن الموضوع ومن الاستعداد الذى لا يشبع لاستيعاب كل ما تقع عليه العين وأن يكون القارئ صابراً بل يجب ألا ينفد صبره .

فإذا أحس أنه قد شعر بشىء من الملل فمعنى ذلك أنه قد تعب وأن كل حيل المؤلف لم تعد قادرة على فتح عينيه وشهيته فليقفل الكتاب فوراً ولينظر إلى شىء آخر .. أو يقلب فى كتاب آخر !



